سلسلة أحاديث في الدعوة والتوجيه

٤

حديث
بدء الوحي
وقفات وتأملات

أ.د. فالح بن محمد الصغير

الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار ابن الأثير

سلسلة أحاديث في الدعوة والتوجيه ٤

حديث
بدء الوحي
وقفات وتأملات

إعداد
أ.د. فالح بن محمد الصغير

الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الرياض

١٤٢٣هـ

دار ابن الأثير

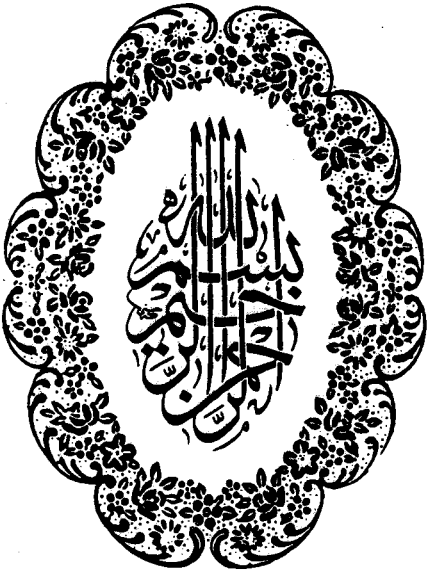
بسم الله الرحمن الرحيم

حديث

بدء الوحي

وقفات وتأملات

ⓒ دار ابن الأثير للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الصغير، فالح بن محمد
بدء الوحي. ـ الرياض.
٩٦ص؛ ١٧ × ٢٤سم
ردمك: ٥-٤٥-٨٧٣-٩٩٦٠
١ ـ الدعوة الإسلامية ٢ـ الحديث - مباحث عامة أ ـ العنوان
ديوي ٢١٣ ٢٣/٣٦٥٧

رقم الإيداع ٢٣/٣٦٥٧
ردمك: ٥-٤٥-٨٧٣-٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

دار ابن الأثير

المملكة العربية السعودية - ص.ب ٦٤٣٧٧ الرياض ١١٣٥٦
هاتف: ٤٢٨٥٣٩٠ - فاكس: ٢٦٧٢٥٥٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمـــة

الحمد لله الذي مَنَّ على هذه الأُمَّة بنعمة الإيمان، وأكمل لهم دين الإسلام، وبَعَثَ إليهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحِكْمَة، ورضي لهم الإسلام ديناً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القائل في كتابه العزيز: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٦]، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله القائل: «مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَاراً، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّار يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقحمْنَ فِيهَا، قَالَ: فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ؛ أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَن النَّار هَلُمَّ عَن النَّار هَلُمَّ عَن النَّار فَتَغْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا»[1]، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً،

---

(١) رواه البخاري في الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي (٦٤٨٣)، ومسلم واللفظ له في الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته (٢٢٨٤).

أما بعـد:

فإن أحلىٰ ما يتمتع بقراءته القارئ من الكُتُب بعد كتاب الله عز وجل وحديث المصطفى ﷺ هو سيرة الرسول الكريم ﷺ، وكل ما يتعلَّق بحياته من مولده ونشأته وأسفاره وزواجه وتشرفه بالنبوة ودعوته الناس إلى كلمة التوحيد وتحمُّل الأذىٰ في ذلك وهجرته وغزواته ووفاته وما حدث بعد وفاته، بل دراسة تاريخ العالم قبيل بعثته ﷺ لها من الأهمية بمكان، لذا قد اهتمَّ المؤرخون وكُتَّاب السير لهذا الجانب وردوا مزاعم المفترين على رسالته ﷺ.

وإن من الأهداف لدراسة سيرة المصطفى ﷺ التوجه للعمل التطبيقي لهذا الدين، فهو رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وهو المثل الأعلى في جميع شئون الحياة، فهو الشاب المثالي المستقيم في حياته وحتى قبل نبوَّته، ولذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٦]، وهو الداعية الحكيم في أسلوب دعوته، وهو الزوج الأمثل في أسرته، وهو الرئيس العادل في دولته، وهو القائد الماهر في معاركه، وهو السياسي الصادق الذي يدير شئون دولته، وهو المسلم الجامع لهذه الأمور وغيرها..

فهو الصورة العلمية المتكاملة لهذا الدين.

ومما تفيدنا أيضاً دراسة السيرة النبوية هو فهم كتاب الله عز وجل؛ لأن الرسول ﷺ هو الذي وضَّح الكتاب العظيم، وفسَّر

مجمله وبيَّن ما يحتاج إلى بيان، يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

وفي حديثنا هذا ـ **حديث بدء الوحي** ـ ندرس مرحلة من مراحل حياة المصطفى ﷺ، ولنستنبط منها بعض الدروس والعِبَر فنطبقها في حياتنا لنسعد في الدنيا والآخرة.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الكلمات وأن يجعلها من المدخرات في الحياة وبعد الممات، حقق الله الآمال، وسدد الخُطىٰ، وعلَّمنا ما ينفعنا، ونفعنا بما علمنا إنه عليم حكيم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبـه

فالح بن محمد بن فالح الصغيِّر

ص.ب ٤١٩٦١ الرياض ١١٥٣١

البريد الإلكتروني: falehmalsgair@yahoo.com

* * *

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

وقفة حول رواية الحديث

نص الحديث وتخريجه:

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ؛ فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، ـ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ ـ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ. قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾ فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ

لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ؛ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي. فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِن الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخاً كَبِيراً قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ! اسْمَعْ مِن ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَىٰ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأى. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعاً! لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيَّ قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِن السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ، جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾

قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ إِلَى قَوْلِه: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ [المدثر: ١ ـ ٥]، فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ. تَابَعَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ وَأَبُو صَالِحٍ، وَتَابَعَهُ هِلالُ بْنُ رَدَّادٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ، وَقَالَ يُونُسُ وَمَعْمَرٌ: بَوَادِرُهُ.

رواه البخاري بهذا اللفظ[١]. وفي طرفه عند البخاري برقم (٦٩٨٢) زيادة: وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا بَلَغَنَا حُزْناً غَدَا مِنْهُ مِراراً كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِي مِنْهُ نَفْسَهُ تَبَدَّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ وَتَقِرُّ نَفْسُهُ فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ.

ورواه مسلم[٢] والترمذي بلفظ: أَوَّلُ مَا ابْتُدِىءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِن النُّبُوَّةِ حِينَ أَرَادَ اللهُ كَرَامَتَهُ وَرَحْمَةَ الْعِبَادِ بِهِ أَنْ لا يَرَى شَيْئاً إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، فَمَكَثَ عَلَى ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، وقول الله جل ذكره: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ (٢٦٦٤)، وأطرافه في البخاري (٣٢٣٨، ٣٣٩٢، ٤٩٢٢ ـ ٤٩٢٦، ٤٩٥٤ ـ ٤٩٥٧، ٦٢١٤، ٦٩٨٢).

(٢) «صحيح مسلم»، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠، ١٦١).

يَمْكُثَ، وَحُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلْوَةُ فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيهِ مِنْ أَنْ يَخْلُوَ[١].

ورواه أحمد في مسنده[٢].

* * *

(١) «جامع الترمذي» كتاب المناقب، باب في ذكر الرؤيا الصادقة عند بدء النبوة (٣٦٣٢).

(٢) رواه أحمد في «باقي مسند المكثرين» (١٤٦١٥)، وفي «باقي مسند الأنصار» (٢٤٧٦، ٢٥٣٣٧، ٢٥٤٢٨).

وقفة على أحوال الناس قبل بعثة النبي ﷺ

وُلِدَ الرسول ﷺ في جزيرة العرب في مجتمع عربي له سماته وخصائصه، وفي ذلك الوقت كان يتصدَّر الناسَ دولتان عظيمتان تتقاسمان السيادة على العالم، وهما: دولة فارس، ودولة الروم. ولكنهما كانتا تعانيان الانحلال والاضطراب في جميع شئون الحياة، وتسودهما صراعات دينية وصراعات عقائدية وفلسفية وصراعات اجتماعية.

أما جزيرة العرب فقد كانت أحسن حالاً، كانت هادئة بعيدة منعزلة عن مظاهر هذه الاضطرابات، وكانت طبائع العرب أشبه ما تكون بمواد الخام، لكنهم كانوا يعيشون في ظلام دامس، في جاهلية مبسطة في جميع مظاهر الحياة، فنجد لديهم من ظلال الجاهلية في جميع الأحوال؛ في الأحوال الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والأخلاقية.

وأكثر العرب من ولد إسماعيل عليه السلام، لذا كانوا يدينون بدين آبائهم إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، غير أنه قد دخل عليه التحريف، فكانوا يشركون بالله في العبادة ويعبدون الأصنام، وأول مَن قام بهذا التخريب هو عمرو بن لحي، وفي حديث صلاة

الكسوف قال النبي ﷺ: «ورأيت فيها ـ أي النار ـ عمرو بن لحي، وهو الذي سيّب السوائب»[١]. وَأَوْرَدَهُ اِبْن إِسْحَاق فِي «السِّيرَة الْكُبْرَىٰ» عَنْ مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيم التَّيْمِيِّ عَنْ أبي صَالِح أَتَمَّ مِنْ هَذَا وَلَفْظه: «سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول لأَكْثَم بْن الْجَوْن: رَأَيْت عَمْرو بْن لُحَي يَجُرّ قُصْبَهُ فِي النَّار، لأَنَّهُ أَوَّل مَنْ غَيَّرَ دِين إِسْمَاعِيل، فَنَصَبَ الأَوْثَان وَسَيَّبَ السَّائِبَة وَبَحَّرَ الْبَحِيرَة وَوَصَل الْوَصِيلَة وَحَمَى الْحَامِي».

وَذَكَرَ اِبْن إِسْحَاق أَنَّ سَبَب عِبَادَة عَمْرو بْن لُحَي الأَصْنَام أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى الشَّام وَبِهَا يَوْمَئِذٍ الْعَمَالِيق وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأَصْنَام، فَاسْتَوْهَبَهُمْ وَاحِداً مِنْهَا وَجَاءَ بِهِ إِلَى مَكَّة فَنَصَبَهُ إِلَى الْكَعْبَة وَهُوَ هُبَل، وَكَانَ قَبْل ذَلِكَ فِي زَمَن جُرْهُم قَدْ فَجَرَ رَجُل يُقَال لَهُ أَسَاف بِامْرَأَةٍ يُقَال لَهَا نَائِلَة فِي الْكَعْبَة فَمَسَخَهُمَا الله جَلَّ وَعَلا حَجَرَيْنِ، فَأَخَذَهُمَا عَمْرو بْن لُحَي فَنَصَبَهُمَا حَوْل الْكَعْبَة، فَصَارَ مَنْ يَطُوف يَتَمَسَّح بِهِمَا، يَبْدَأ بِأَسَاف وَيَخْتِم بِنَائِلَة. وَذَكَرَ مُحَمَّد بْن حَبِيب عَنْ اِبْن الْكَلْبِيّ أَنَّ سَبَب ذَلِكَ أَنَّ عَمْرو بْن لُحَي كَانَ لَهُ تَابِع مِنْ الْجِنّ يُقَال لَهُ أَبُو ثُمَامَة، فَأَتَاهُ لَيْلَة فَقَالَ: أَجِبْ أَبَا ثُمَامَة، فَقَال: لَبَّيْكَ مِنْ تِهَامَة، فَقَالَ: أُدْخُلْ بِلا مَلامَة، فَقَالَ: ايْتِ سَيْف جُدَّة، تَجِدْ

---

(١) رواه البخاري في كتاب العمل في الصلاة، باب إذا انفلتت الدابة في الصلاة (١٢١٢).

آلِهَة مُعَدَّة، فَخُذْهَا وَلا تَهَب، وَادْعُ إِلَى عِبَادَتِهَا تُجَبْ. قَالَ: فَتَوَجَّهَ إِلَى جُدَّة فَوَجَدَ الأَصْنَام الَّتِي كَانَتْ تُعْبَد فِي زَمَن نُوح وَإِدْرِيس، وَهِيَ وَدّ وَسُوَاع وَيَغُوث وَيَعُوق وَنَسْر، فَحَمَلَهَا إِلَى مَكَّة وَدَعَا إِلَى عِبَادَتِهَا فَانْتَشَرَتْ بِسَبَبِ ذَلِكَ عِبَادَة الأَصْنَامِ فِي الْعَرَب.

وفي اليمن قد دخلت اليهودية عن طريق بعض الأحبار، والنصرانية عن طريق الحبشة، ولكنها كانت محرَّفة ليست كما جاءت من عند الله. والمجوسية قد تسرَّبت إلى بعض مَن يقطنون بجوار دولة فارس، وكان الدين السائد في الجزيرة الوثنية وعبادة الأصنام.

وإذا تأملت الحالة الاجتماعية تجد أن العرب طبقات، طبقة من الأشراف، وطبقة من العبيد، والرجل السيد مستبد إلى حد كبير، والاختلاط كان سائداً بين الرجال والنساء في كثير من الأوساط إلى حد الدعارة والمجون والفاحشة الظاهرة، وتصور لنا عائشة رضي الله عنها بعض الصور الاجتماعية في صور النكاح الموجودة في الجاهلية، تقول:

إِنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ:

فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوْ ابْنَتَهُ فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا.

وَنِكَاحٌ آخَرُ كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا

أَرْسِلِي إِلَى فُلان فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ، وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا وَلا يَمَسُّهَا أَبَداً حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الْوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الاسْتِبْضَاع.

وَنِكَاحٌ آخَرُ يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُم الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ وَقَدْ وَلَدْتُ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلانُ تُسَمِّي مَنْ أَحْبَّتْ باسْمِهِ، فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ.

وَنِكَاحُ الرَّابِعِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ لا تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا، وَهُنَّ الْبَغَايَا كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَماً فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمْ الْقَافَةَ ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَها بِالَّذِي يَرَوْنَ فَالْتَاطَ بِهِ وَدُعِيَ ابْنَهُ لا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلاَّ نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ[1].

وكانوا يعددون في الزواج إلى غير حد ينتهي إليه، وينكحون زوجة الأب، ووأد البنات خشية العار أو الإنفاق كان سائداً،

---

(١) رواه البخاري في النكاح، باب من قال: لا نكاح إلا بولي (٥١٢٧).

والمرأة لا قيمة لها تباع وتشترى وتورث، والحروب مستمرة فيما بين القبائل، تسيل فيها الدماء وتفنى فيها الأعمار، وكانوا يحبون القتال إلى حد أنهم كانوا يؤخرون الأشهر الحرم عن وقتها، فالأمن معدوم، والخوف على النفس والعرض والمال في كل حين.

وإذا اتجهنا إلى الحالة الاقتصادية تجد أن الحالة السائدة في العرب هي التجارة، وكانت لقريش رحلتان: رحلة في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام، والتجارة أيضاً كانت مهددة إلا في الأشهر الحرم. وكان عندهم شيء من الزراعة ورعي الأغنام، وكانت بعض النساء يشتغلن بالغزل، أما الصناعات فالعرب كانوا أبعد الناس عنها.

أما الحالة الأخلاقية فتجدهم بجانب ما عندهم من الأخلاق الذميمة أفضل من غيرهم في ذلك العهد، فكان خلق الكرم سائداً، يأتي أحدهم الضيف وليس عنده من المال إلا الناقة التي بها معاشه وحياته فيذبحها لضيفه، وكانوا يتمسكون بخُلُق الوفاء بالعهد، وكانوا يعدون الخلف بالعهد جريمة كبرى، ومن صفاتهم الشجاعة وشدة الغيرة حيث إنهم يسلون السيوف لأدنى كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان، كما كانوا يمتدحون بالحلم والأناة.

هذه حالة العرب قبل بعثة النبي ﷺ، وهي تشير إلى بعض الحكم التي من أجلها بعث النبي ﷺ في جزيرة العرب، ويضاف

إلى ذلك وجود البيت الحرام في مكة المكرمة، وتوسط الجزيرة في الكرة الأرضية، واختار الله سبحانه وتعالى لغة العرب لتكون لغة كتابه الذي ينزل على نبيه ﷺ لأنها أكثر اللغات جمعاً للمعاني وأوسعها بياناً وأسهلها تعلماً.

في هذه الأوساط الاجتماعية والدينية والخلقية وُلِد محمد ﷺ وبُعِث، فأنقذ الله تعالى به هذه الأمة، ونقلها من تلك الضلالات العقائدية والأخلاقية إلى نور الإسلام وعدله وصفائه وأخلاقه.

* * *

وقفة على أحوال المصطفى ﷺ قبل النبوة

مولد النبي ﷺ:

وُلِد الرسول ﷺ بشِعب بني هاشم بمكة صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول في عام الفيل، وحادث الفيل من النعم التي امتنَّ الله بها على قريش فيما صرف عنهم أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة فأبادهم الله وردَّهم بشر خيبة، وكانوا قوماً نصارى من أهل كتاب ولكن أرغم الله أنوفهم، وكان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ فكأنه يقول: لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي صلوات الله وسلامه عليه[١].

الإرهاصات:

وقد سبق مولده ﷺ حوادث من باب الإرهاص والتوطئة لمبعثه ﷺ، من ذلك ما أشير إليه من حادث الفيل، ومن ذلك أيضاً ما قالت أمه آمنة حين تخوفت حليمة السعدية عليه، قالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟ قالت: بلى، قالت: كلا! والله ما للشيطان

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة الفيل. بتصرف.

عليه من سبيل، وإن لبني لشأناً، أفلا أخبرك خبره؟ قالت: بلى، قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي به قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به، فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخوف ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يده بالأرض، رافع رأسه إلى السماء[١].

ومن ذلك أيضاً ما ذكره الطبري والبيهقي أن أربع عشرة شرفة سقطت من إيوان كسرى عند مولده ﷺ، وخمدت النار التي يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة.

ومن ذلك ما ذكره ابن إسحاق عن حسان بن ثابت رضي الله عنه قال: والله إني لغلام يفعة[٢] ابن سبع سنين أو ثمان أعقل كل ما سمعت؛ إذ سمعت يهوديًّا يصرخ بأعلى صوته على أطمه بيثرب: يا معشر يهود! حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك مالك؟! قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به[٣].

نسب الرسول ﷺ:

ورسولنا ﷺ من أزكى القبائل وأشرف الأنساب، فما تسلسل شيء من أدران الجاهلية إلى نسب الرسول ﷺ، ونسبه كما ذكر البخاري رحمه الله: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢١٣).
(٢) غلام يفعة: معناه قوي قد طال قده.
(٣) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢١٧).

عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعبِ بْنِ لؤَيِّ بْنِ غالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ(١).

وفي صحيح مسلم عن وَاثِلَةَ بْن الأَسْقَعِ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الله اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ(٢).

نشـــأته ﷺ:

قد توفي أبوه وهو ﷺ حمل في بطن آمنة بنت وهب، فوُلِد يتيماً، ثم ماتت أمه وعمره ست سنوات، فكفله جده لمدة سنتين ومات أيضاً، ثم كفله عمه أبوطالب إلى أن شبَّ، فنشأ رسول الله ﷺ نشأة اليتامى.

استرضع عبدالمطلب للنبي ﷺ حليمة ابنة أبي ذؤيب من سعد بن بكر، وقد بوركت أسرة حليمة السعدية بأنواع من البركات طيلة مكوث النبي ﷺ رضيعاً فيهم، وحل هناك شق صدر النبي ﷺ. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ عندما قالوا له: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك، قال: «نعم أنا دعوة إبراهيم، وبشرى أخي

---

(١) ذكره البخاري في «صحيحه» في كتاب المناقب.

(٢) رواه مسلم في الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٢٢٧٧).

عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهماً لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجاً فأخذاني فشقّا بطني، واستخرجا قلبي فشقّاه، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي بذلك الثلج حتى أنقياه»[١]...

أشغاله ﷺ قبل النبوة:

إن الله سبحانه وتعالى قد حفظه من جميع أدران الجاهلية، وكان ذا أخلاق عالية، حتى إن أهل مكة سموه الأمين، يقول ابن هشام: «فشبّ رسول الله ﷺ والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية؛ لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً، حتى ما اسمه في قومه إلا «الأمين» لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة»[٢].

وقد حماه الله تعالى من الانحرافات الخلقية أو التدين بدين

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢١٤).
(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٢٩).

الجاهلية من عبادة الأصنام أو التقرب إليها، روى الحاكم والبيهقي والبزار وغيرهم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما هممت بما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا مرتين من الدهر كلاهما يعصمني الله تعالى منهما، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش في أعلى مكة في أغنام لأهلها ترعى: أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما تسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف وزمر، فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانة لرجل من قريش تزوج امرأة، فلهوت بذلك الغناء والصوت حتى غلبتني عيني فنمت فماأيقظني إلا مس الشمس، فرجعت فسمعت مثل ذلك فقيل لي مثل ما قيل لي فلهوت بما سمعت وغلبتني عيني فما أيقظني إلا مس الشمس ثم رجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً**» قال رسول الله ﷺ: «**فوالله ما هممت بعدها أبداً بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله تعالى بنبوّته**»[1].

وأخرج البخاري عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: لَمَّا بُنِيَت الْكَعْبَةُ ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَبَّاسُ يَنْقُلانِ الحِجَارَةَ، فَقَالَ عَبَّاسٌ للنَّبِيِّ ﷺ: اجْعَلْ إزَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ يقيكَ من الحِجَارةِ،

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» في كتاب التوبة والإنابة برقم (٧٦١٩) (٤/ ٢٤٥).

فخَرَّ إلى الأرضِ وطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إلى السَّماءِ ثمَّ أَفَاقَ فقالَ: إزَاري إزاري، فشدَّ عليهِ إزارهُ[١]. فما رؤيت له عورة بعد ذلك.

وأخرج البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لَقِيَ زَيْدَ بنَ عَمْرو بنِ نُفَيْلٍ بأسفَلِ بَلْدَحٍ قَبْلَ أن ينزِلَ عَلَى النَّبيِّ ﷺ الوَحيُ، فقُدِّمَت إلى النَّبيِّ ﷺ سُفْرَةٌ فَأَبَى أن يأكلَ منهَا، ثُمَّ قال زَيدٌ: إنِّي لستُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أنْصَابِكُمْ ولا آكُلُ إلا ما ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه[٢].

ومما عمله النبي ﷺ قبل النبوة رعي الأغنام؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إلاَّ رَعىٰ الغَنَمَ**» فقال أصحابُهُ: وَأنتَ؟ فقال: نَعَمْ كُنْتُ أرْعَاهَا عَلَى قَرَاريطَ لأهلِ مكة»[٣]. وأيضاً قد اشتغل النبي ﷺ قبل النبوة بالتجارة، وقد خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ولما بلغَ من عمره الخامسة والعشرين خرج إلى الشام مرة أخرى تاجراً في مال خديجة رضي الله عنها، قال ابن إسحاق: «وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة، ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً، فلما

---

(١) رواه البخاري في مناقب الأنصار، باب بنيان الكعبة (٣٨٢٩)، ومسلم في الحيض، باب الاعتناء بحفظ العورة (٣٤٠).

(٢) رواه البخاري في مناقب الأنصار، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل (٣٨٢٦).

(٣) رواه البخاري في الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط (٢٢٦٢).

بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها: من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه؛ بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام[1].

ولما أقبل قافلاً إلى مكة وقد رأى ميسرة منه ما رأى من تكريم الله إياه والأرباح المضاعفة حكى ذلك لخديجة رضي الله عنها فبعثت إلى رسول الله ﷺ تعرض نفسها عليه ليتزوجها، وكانت رضي الله عنها يومئذٍ أفضل نساء مكة نسباً وعقلاً ومالاً، فذكر رسول الله ﷺ لأعمامه، فخرج معه عمه حمزة حتى دخل على خويلد بن أسد، فخطبها إليه فتزوجها، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ولم يتزوج عليها غيرها حتى توفيت رضي الله عنها.

ولمَّا بلغ عمره خمساً وثلاثين سنة أرادت قريش بناء الكعبة، وتجزأت بناء الكعبة في القبائل، ولمَّا بلغ البنيان موضع ركن الحجر الأسود اختلفوا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى استعدُّوا للقتال وتحالفوا عليه، فقال أحدهم وهو أسنهم وأعقلهم: يا معشر قريش! اجعلوا أول من يدخل من باب هذا المسجد حكماً يقضي بينكم، ففعلوا، فكان أول داخل

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٣٤، ٢٣٥).

رسول الله ﷺ فقالوا: هذا الأمين رضينا هذا محمد، فطلب ﷺ ثوباً فأتوا به، فوضع ﷺ الحجر عليه وطلب من رؤساء القبائل أن يأخذ كل واحد منهم بناحية من الثوب، حتى إذا بلغوا إلى موضعه وضعه هو بيده، وهكذا قد أنهى تشاجرهم الذي قد وصل إلى التحالف على القتال.

ومن إكرام الله رسوله ﷺ قبل تشريفه بالنبوة أن بعض الجمادات كانت تسلم عليه، ففي صحيح مسلم عن جابر بن سَمُرَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَراً بمكَّةَ كان يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أن أُبْعَثَ إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ»**(١).

هذه بعض الأحداث التي مرَّت على نبينا ﷺ قبل النبوة، ولعلَّنا نقف مع بعضها مواقف سريعة نستلهم منها بعض العِبَر والدروس لنستفيد منها في واقع حياتنا العلمية لأننا كما ذكرت في البداية أن الفائدة من سيرة المصطفى ﷺ هو تطبيقها في حياتنا وفي واقعنا.

الدرس الأول: في نسبه الشريف ﷺ دلالة ظاهرة على سلامة أصله، فلو لم يكن كذلك لتعرضت دعوته إلى الطعن فيها، ولذا لما سأل هرقل أبا سفيان عن نسبه ﷺ لم يجد مفرًّا من قوله: إنه ذو نسب. فقال هرقل: كذلك الرُّسل تُبْعَث في نسب قومها، ولله الحكمة

---

(١) رواه مسلم في الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٢٢٧٦).

البالغة.

الدرس الثاني: كونه نشأ يتيماً فيه حكمة بالغة لا يعلم كنهها إلا الله عز وجل، ولعلَّ من السرّ في ذلك ما يظهر للمتأمل أنه لا يكون للمبطلين سبيل لإدخال الريبة إلى القلوب أو إيهام الناس بأن محمداً ﷺ إنما جاء بدعوى النبوة بإرشاد وتوجيه من أبيه وجده لأنهم كانوا أشرافاً، ومن الحكم أيضاً من كونه نشأ يتيماً بعيداً عن الميوعة بعيداً عن الترف الذي يزيد في تنعيمه حتى لا تميل نفسه إلى هذا النعيم أو إلى الترف أو إلى مجد المال أو الجاه والسلطة ونحو ذلك..

الدرس الثالث: في رعيه ﷺ للغنم كسب شريف؛ لأنه من عمل يده، وترويض له على العطف على الفقراء، واستنشاق للهواء النقي في الصحراء، وتقوية للجسم، واتباع لسُنَّة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وتربية على قيادة الأمة جمعاء، لأن من المعروف عند أهل الرعي أن الغنم صعبة القيادة، فهنا قد هيَّأ الله له التربية على القيادة منذ الصغر، وفي رعيه صلوات الله وسلامه عليه الغنم حِكَم غير هذه.

الدرس الرابع: كونه صلوات الله وسلامه عليه أُمِيًّا لا يقرأ ولا يكتب كان لِحِكَم عديدة؛ أهمها ليكون أبعد من تهمة الأعداء وشبهة المغترين أنه اغترف هذا العلم من علوم فارس والروم أو أخذه بقراءة كتب وغير ذلك من التهم والشبهات، وقد أشار الله إلى

هذه الحكمة بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨]، إذاً كونه نشأ أُمِيًّا دليل قوي على صحة ما جاء به من عند الله سبحانه وتعالى من الوحي.

الدرس الخامس: درؤه للفتن في حال شبابه صلوات الله وسلامه عليه، ويظهر ذلك في عدة مواقع منها وقت بناء الكعبة في وضع الحجر الأسود في موضعه، وقد حضر حلف الفضول، وذلك أن قبائل من قريش تعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على مَن ظلمه حتى ترد عليه مظلمته. وفي ذلك ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ قال: «**لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت**»[1].

الدرس السادس: إن ما جاء من حفظ الله سبحانه وتعالى إياه من كل شر، وخاصة ما حماه الله سبحانه من عبادة الأصنام وأخلاق الجاهلية، فيه دليل على صدق نبوَّته ﷺ؛ لأنه لو كان وقع في شيء من ذلك لطعنوه به وقالوا له: بالأمس كنت تفعل كذا وكذا واليوم تنهانا عنه، لذا سأل هرقل أباسفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبوسفيان: لا، فقال هرقل: لم يكن ليذر

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ١٨٢).

الكذب على الناس ويكذب على الله.

حماه الله تعالى عن كل مالا يتفق من مقتضيات النبوة والدعوة حتى لا تلمز تلك الدعوة بتلك الانحرافات السابقة في حياته ﷺ عندما يبتدئ الدعوة، فلله الحكمة البالغة، وهكذا ينبغي لدُعاة اليوم وفي كل يوم، أن يتخلقوا بالأخلاق الفاضلة وأن ينظفوا سرائرهم وبواطنهم وظواهرهم لأجل ألا يلمزوا بتلك البواطن في دعواتهم عندما يقولوا كلمة حق أو يرشدوا الناس ويوجهوهم إلى الخير أو يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر.

هذه كانت وقفات سريعة مع حياة الرسول ﷺ قبل النبوة، والآن لندخل في صلب الموضوع وهو **فقه حديث بدء الوحي**.

* * *

الوقفة الأولى: الرؤيا الصالحة

قالت عائشة رضي الله عنها: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا الحديث من مَرَاسِيل الصحابة رضي الله عنهم؛ فإنَّ عائشة رضي الله عنها لم تُدْرِك هذه القضيَّة، فتكون قد سَمِعَتْها من النبي ﷺ أو من الصحابي. وقد قدَّمْنَا في الفصول أن مُرْسَل الصَّحَابيّ حُجَّة عند جميع العلماء إلا ما انفرد به الأستاذ أبوإسحاق الإسفراييني. والله أعلم»[1].

وقولها رضي الله عنها: «الرؤيا الصالحة»، وفي رواية مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرؤيا الصادقة». قال النووي: وهما بمعنى واحد. أي ليس من أضغاث أحلام، أما حقيقة الرؤيا فقد اختلف الناس فيها ليس هذا مجال تفصيلها، ونقتصر على ما ورد في السُّنَّة، ففي الحديث الصحيح عن محمد بن سيرين أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إذا اقترب الزمان لم تكد تكذب رؤيا المؤمن،**

---

(١) ينظر ما كتبته في ذلك عن حديث (بعث معاذ إلى اليمن) رواية ودراية طبع دار ابن الأثير.

ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وما كان من النبوة فإنه لا يكذب»، قال محمد ـ أي ابن سيرين ـ: وأنا أقول هذه، قال: وكان يُقال: **الرؤيا ثلاث: حديث النفس، وتخويف الشيطان، وبشرى من الله**. فمن رأى شيئاً يكرهه فلا يقصه على أحد وليقم فليصل[١].

والرؤيا الصادقة إنما ترى من كثر صدقه، وفي الحديث: «**وأصْدَقكمْ رُؤيا أصْدَقكمْ حديثاً**»[٢]، قال ابن حجر نقلاً عن القرطبي في «المفهم»: وإنما كان كذلك لأن مَن كَثُرَ صِدْقه تَنوَّر قلبه وقَوي إدراكه فانْتَقَشَتْ فيه المعاني على وجه الصحَّة، وكذلك مَن كان غالبُ حاله الصِّدْق في يقظته اسْتَصْحَبَ ذلك في نومه فلا يرى إلا صدقاً، وهذا بخلاف الكاذِب والمُخَلِّط فإنَّه يَفْسُد قَلْبه ويُظْلِم فلا يرى إلا تخْلِيطاً وأضْغَاثاً، وقد يَنْدُر المَنَام أحياناً فيرى الصَّادِق ما لا يصح ويرى الكاذِب ما يصحّ، ولكن الأغْلَب الأكثر ما تقدَّم، والله أعلم.

ووقع في حديث عوف بن مالك رَفَعَه: «**الرُّؤْيَا ثلاث**: منها أهاويل من الشيطان ليَحْزُن ابن آدم، ومنها ما يُهِمّ به الرَّجُل في يَقَظَته فيَرَاه في منامه، ومنها جزء من سِتَّة وأربعين جزءاً من

---

(١) رواه البخاري في التعبير، باب القيد في المنام (٧٠١٧)، ومسلم في الرؤيا، باب في كون الرؤيا من الله وأنها جزء من النبوة (٢٢٦٣).

(٢) رواه مسلم في الرؤيا، باب في كون الرؤيا من الله وأنها جزء من النبوة (٢٢٦٣).

النبوَّة»[١]. قال ابن حجر: قلت: وليس الحَصْر مُراداً من قوله: «ثلاث» لِثُبُوتِ نَوْع رابع في حديث أبي هريرة في الباب، وهو حديث النَّفْس، وليس في حديث أبي قَتَادَة وابي سعيد الماضيين سوى ذِكْر وَصْف الرُّؤيا بأنها مكروهة ومحبوبة أو حَسَنَة وسيِّئة، وبقي نوع خامس وهو تلاعب الشيطان، وقد ثبت عند مسلم من حديث جابر قال: «جاء أعرابيّ فقال: يا رسول الله، رَأَيْت في المَنَام كأنَّ رَأْسِي قُطِع فأنا أتْبَعُهُ، وفي لفظ: فقد خَرَجَ فاشْتَدَدْت في أثَرِه، فقال: «لا تُخْبِر بِتَلاعُبِ الشَّيْطَان بِك في المَنَام» وفي رواية له: «إذَا تلاعَبَ الشيطان بأحدكم في منامه فلا يُخْبِر به النَّاس»[٢]. ونوع سادس: وهو رؤيا ما يَعْتَادُه الرَّائِي في اليقظة، كَمَنْ كانت عادته أن يأكل في وقت فنام فيه فرأى أنه يأكل أو بات طافِحاً من أكل أو شرب فرأى أنه يتقيَّأ، وبينه وبين حديث النَّفْس عُمُوم وخُصُوص. وسابع وهو الأَضْغَاث.

والرؤيا الصادقة هي بشرى من الله، فعن سعيد بن المُسَيَّب أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَمْ يَبْقَ من النُّبُوَّةِ إلا المُبَشِّراتُ». قالوا: وما المُبَشِّرَاتُ؟ قال: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ»[٣].

وهنا إشكال؛ وهو أن القول بأن الرؤيا الصالحة أو الصادقة

---

(١) رواه ابن ماجه في تعبير الرؤيا، باب الرؤيا ثلاث (٣٩٠٧)، وحسَّنه ابن حجر في «الفتح».

(٢) رواه مسلم في الرؤيا، باب لا يخبر بتلعب الشيطان به في المنام (٢٢٦٨).

(٣) رواه البخاري في التعبير، باب المبشرات (٦٩٩٠).

جزء من النبوة هل يستلزم بقاء النبوة واستمرارها؟ فالأمر ليس كذلك؛ لأنه مجرد تشبيه الرؤيا بالنبوة، ولأن جزء الشيء لا يستلزم ثبوت وصفه له، كما لو قال أحد: أشهد أن لا إله إلا الله، رافعاً بها صوته لا يقال بأنه أذّن وإن كانت هذه الكلمة جزءاً من الأذان، وكذا لو أن أحدهم قرأ القرآن قائماً لا يُقال بأنه صلى وإن كانت القراءة جزءاً من الصلاة، كما ذكر ذلك ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ. وقال الخطابي: وإنما كانت جزءًا من أجزاء النبوة في حق الأنبياء دون غيرهم، وكان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يوحى إليهم في منامهم كما يوحى إليهم في اليقظة، وقال: وقال بعض العلماء: معنى الحديث أن الرؤيا تأتي على موافقة النبوة، لأنها جزء باقٍ من النبوة. والله أعلم.

وقولها: «فكان لا يَرَى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصُّبْح». قال أهل اللغة: فَلَق الصُّبْح وفَرَق الصُّبْح بفتح الفاء واللام والراء هو ضياؤه، وإنما يُقال هذا في الشيء الواضح البيِّن. قال القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من العلماء: إنما ابْتُدِىءَ ﷺ بالرؤيا لئلا يَفْجَأهُ المَلَك ويأتيه صريح النبوة بَغْتَة فلا يحتمِلَها قُوَى البشرية، فبُدِىءَ بأوَّل خِصَال النبوة وتباشير الكرامة من صدق الرؤيا، وما جاء في الحديث الآخر من رؤية الضوء وسماع الصوت وسلام الحَجَر والشجر عليه بالنبوة.

* * *

وإذا علمنا ذلك تعاملنا مع هذه الرؤىٰ والأحلام بالمعاملة الشرعية، فإذا رأى الإنسان أمراً يحبه، وظاهره خير فليسأل عنه من عرف بالتعبير السليم مع الاستقامة في سلوكه، وصحة معتقده وليحذر من سؤال الأفَّاكين والكُهَّان وقُرَّاء الكف والفنجان، أو من عُرِف بقلة العقل ورداءة الخُلُق وضعف الاستقامة.

وإن كان ظاهرها شرًّا فلينفث على يساره ويتعوَّذ بالله من شرها ومن شر الشيطان الرجيم، ويتحوَّل عن جنبه الذي كان عليه، وإن أمكن أن يصلي ركعتين فحسن فإنها لا تضره كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح، فعن أبي قَتَادَة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِن اللهِ والرُّؤْيَا السُّوْءُ مِن الشَّيْطَانِ، فَمَنْ رَأى رُؤْيَا فَكَرِه مِنْهَا شيئاً فَلْيَنْفُثْ عَن يسَارِهِ وَلْيَتَعَوَّذْ باللهِ مِن الشَّيْطَانِ لا تَضُرُّهُ، وَلا يُخْبِرْ بِهَا أَحَداً، فَإِنْ رَأى رُؤْيا حَسَنَةً فَلْيُبْشِرْ ولا يُخْبِرْ إلا مَن يُحِبُّ**»[1].

أما أحلام التخليط فهذه أضغاث أحلام، فعلى المسلم ألا يشتغل بها، وهنا ونحن نختم هذه الوقفة، نرى في هذا الزمن انسياق كثير من الناس حول الرؤى والمنامات بل وصل بعضهم إلى

---

(١) رواه البخاري في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣٢٩٢)، ومسلم في الرؤيا، باب في كون الرؤيا من الله وأنها جزء من النبوة (٢٢٦١).

اعتقادها يقيناً وبنوا عليها أعمالاً في واقع حياتهم وعلاقاتهم وكذا أحكاماً شرعية، وهذا بلا شك خلاف المنهج الصحيح، وقد يزل به المرء ويهلك فليتنبه إلى مثل هذه المواقف والأعمال، والله المستعان.

❊ ❊ ❊

الوقفة الثانية: خلوة النبي ﷺ في غار حراء

قالت عائشة رضي الله عنها: «ثُمَّ حُبِّبَ إليه الخَلاء، فَكَان يخْلُو بغار حِرَاء يَتَحَنَّث فيه، وهو التَّعَبُّد اللَّيَالي ذوات العَدَد قَبْل أن ينزِع إلى أهله ويَتَزَوَّد لذلك، ثم يرجِع إلى خديجة رضي الله عنها فيَتَزَوَّد لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء».

قال ابن إسحاق: وحبّب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده[1].

والخَلْوَة شأن الصالحين، وعباد الله العارفين. قال أبوسليمان الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: حُبِّبَت العُزْلَة إليه ﷺ لأن معها فراغ القلب، وهي مُعِينةٌ على التَّفَكُّر، وبها ينقطع عن مألُوفات البشر، ويتخشَّع قلبه. والله أعلم.

أما مدة هذه الخلوة بغار حراء للتعبد فقد اختلفت الأقوال، والراجح أنه شهر من كل سنة، وهذا الشهر كان رمضان، وكان يطعم من جاءه من المساكين، وإذا انصرف كان يبدأ بطواف الكعبة قبل أن يدخل بيته.

والتحنث التعبد كما في الحديث، وأصل الحِنْث الإثْم،

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٧٦).

فمعنى يتحنَّث يتجنَّب الحِنث، فكأنه بعبادته يمنع نفسه من الحِنْث، ومِثْل يتحنَّث يتحرَّج ويتأثَّم أي يتجنَّب الحَرَج والإثم.

واختلفوا في نوعية التحنث وهو التعبد؛ هل هو تعبد السابقين؟ أم مجرد خروج للخلاء للتفكر في مخلوقات الله سبحانه وتعالى، والخلوة مع النفس والتفكير في هذه الحياة؟ ولم يرد في شيء من ذلك حديث صحيح. وقال البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وأهل الأصول على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا مؤمنين قبل الوحي، وكان النبي ﷺ يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم، ولم يتبين له شرائع دينه[1].

ولكن لا شك أن هذه الخلوة والعزلة التي ينعزل فيها الرسول ﷺ ويخرج فيها للخلاء في غار حراء كانت من تدبير الله سبحانه وتعالى لما ينتظره من أمر عظيم؛ ليتدبر في حال هذا الكون، وليتدبر في خالق هذا الكون، ولينقطع عن مشكلات الناس ويبتعد عن أعمالهم المنكرة وأفعالهم القبيحة، لتصفو نفسه من أكدارها، ولتبتعد نفسه عن ضجيج الدنيا ومشكلاتها.

من هنا ينبغي لكل مسلم وللدعاة خاصة أن يستلهموا العبرة والعظة من خلوته ﷺ ليجعلوا لأنفسهم ساعات بين الحين والآخر يخلو فيها الإنسان مع نفسه ليحاسبها، يخلو فيها مع نفسه ليراقب

---

(١) «تفسير البغوي» (٧/ ٢٠١).

الله سبحانه وتعالى.. وليعرض أعماله من خير أو شر، ويخلو أيضاً مع نفسه ليتفكر في مظاهر الكون.. وليتفكر فيما خلقه الله سبحانه وتعالى.. وليتفكر في عظمة الله سبحانه وتعالى، كل ذلك ليقرب من الله عز وجل.

والخروج إلى أرض فضاء أو الصحراء للتفكُّر في خلق السماوات والأرض وفي خلق الشمس والقمر والنجوم والجبال والأشجار، يشعر بعظمة الله وحكمته ورفقه بعباده، والنبي ﷺ كان يخرج إلى البادية لذلك، فعن شُرَيْح قَالَ: سَأَلْتُ عائشة رضي الله عنها عن البَدَاوَةِ؟ فقالت: كان رسول الله ﷺ يَبْدُو إلى هذه التِّلاع وإنه أرادَ البَدَاوَةَ مرَّة فأرسل إليَّ ناقةً مُحَرَّمةً من إبل الصدقة فقال لي: «**يا عائشة! ارْفُقِي فإنَّ الرِّفْقَ لم يكن في شيء قطُّ إلا زَانَه، ولا نُزِعَ من شيءٍ قطُّ إلا شَانَهُ**»(١).

والعلماء قد اختلفوا في أيهما أفضل؛ العزلة أو الاختلاط، وكل فريق له دليل.

ومن الصوفية الجهلاء مَن يستدل بخلوته ﷺ في غار حراء على مكوثهم في الغيران والجبال والصحاري أياماً معدودة، ويدعون أنه بذلك تتنوَّر قلوبهم. وهذه دعاوى لا دليل لها من

---

(١) رواه أبوداود في الجهاد، باب ما جاء في الهجرة وسكنى البدو (٢٤٧٨). البَدَاوَة: أي الخروج إلى البدو والمُقَام به. يَبْدُو: أي يخرج إلى البادية لحصول الخلوة وغيره. والتِّلاع: مجاري الماء من أعلى الأرض إلى بطون الأودية.

الشرع، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في الرد على ذلك: إذ المقصود هنا الكلام في أجناس عباداتٍ غير مشروعةٍ حَدَثَتْ في المتأخرين كالخَلَوَاتِ فإنها تَشْتَبِهُ بالاعتكاف الشرعي. والاعتكاف الشرعي في المساجد كما كان النبي ﷺ يفعله هو وأصحابه من العبادات الشرعية. وأما الخلوات فبعضهم يحتجُّ فيها بتَحَنُّثِهِ بغار حراء قبل الوحي وهذا خطأٌ؛ فإن ما فعله ﷺ قبل النبوة إن كان قد شَرَعَهُ بعد النبوة فنحن مأمورون باتِّباعه فيه وإلا فلا. وهو من حين نَبَّأَهُ الله تعالى لم يصعد بعد ذلك إلى غار حِراءٍ ولا خُلَفَاؤُه الراشدون. وقد أقام صلوات الله عليه بمكة قبل الهجرة بِضْعَ عشرة سنة، ودخل مكة في عُمْرَةِ القَضَاءِ وعامَ الفتح أقام بها قريباً من عشرين ليلة، وأتاها في حجة الوداع، وأقام بها أربع ليال، وغار حراء قريب منه ولم يقصده. وذلك أن هذا كانوا يأتونه في الجاهلية، ويُقال: إن عبدالمطلب هو سَنَّ لهم إتيانه؛ لأنه لم تكن لهم هذه العبادات الشرعية التي جاء بها بعد النبوة صلوات الله عليه؛ كالصَّلاةِ والاعتكاف في المساجد فهذه تُغْنِي عن إتيَانِ حِرَاءٍ بخلاف ما كانوا عليه قبل نُزُول الوحي، ثم قال: و«طَائِفَةٌ» يجعلون الخَلْوَةَ أربعين يوماً ويُعَظِّمُونَ أمْرَ الأربعينية، ويحتجُّون فيها بأن الله تعالى واعَدَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثلاثين ليلة وأتمَّها بعَشْر، وقد رُوي أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ صَامَها وصَامَ المسيحُ أيضاً أربعين لله تعالى وخُوطِبَ بعْدَها فيَقُولُونَ: يَحْصُلُ بعدها الخطاب والتنزُّلُ كما

يقولون في غار حراءٍ حَصَلَ بعده نزول الوحي. وهذا أيضاً غلطٌ فإن هذه ليست من شريعة محمد ﷺ، بل شُرِعَتْ لموسى عليه السلام كما شُرِعَ لَهُ السَّبْتُ والمسلمون لا يَسْبِتُونَ، وكما حرِّم في شرعِهِ أشياء لم تُحَرَّمْ في شرع محمدٍ ﷺ. فهذا تمسُّك بشرع منسوخ وذاك تمسُّك بما كان قبل النبوة. وقد جُرِّب أن مَن سَلَكَ هذه العبادات البدعية أتته الشياطين وحصل له تنزُّل شيطاني وخطاب شيطاني، وبعضهم يطير به شيطانه، وأعرف من هؤلاء عدداً طلبوا أن يحصل لهم من جنس ما حصل للأنبياء من التنزل فنزلت عليهم الشياطين؛ لأنهم خرجوا عن شريعة النبي ﷺ التي أمروا بها. قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩]. وكثير منهم لا يحد للخلوة مكاناً ولا زماناً بل يأمر الإنسان أن يخلو في الجملة.

فخلاصة القول أن كل عمل يعمله الإنسان لابدَّ أن يكون موافقاً للشرع المتين ومبنياً على الإخلاص، فالخلوة إن كانت بين حين وآخر لمحاسبة النفس أو التفكر في خلق الله أو للاعتكاف الشرعي وقد أدَّى حقوق الأهل والأولاد فلا حرج بل هو مطلوب، أما إن كانت الخلوة على حساب حقوق الأهل والأولاد، في المغارات والجبال مع العبادات غير الشرعية مثل أن يقوم أياماً، أو يصوم الدهر، على غرر أعمال نساك اليهود والنصارى فهو ابتداع

في الدين بل يوصل العبد إلى الكفر والشرك، والله المستعان.

أما لو سئل: هل الخلوة في البيت وقلة الاختلاط مع الناس أفضل أو العكس؟ فالجواب أن العزلة والاختلاط لهما أحوال، ويختلف الحكم باختلاف الأحوال؛ إن كانت العزلة عن الأشرار والفُسَّاق أو العابثين فهذه عزلة مفيدة وخاصة إن اشتغل المسلم في العلم أو التلاوة وسائر العبادات المشروعة، أما أن يعتزل عن جماعة المسلمين ولا يعنيه مصالحهم ولا يهمه لو أصابهم شيء فهذا عمل لا يليق بمسلم، وخاصة إن أمر الدعوة لا يتأتى إلا بالاختلاط بالناس والصبر على أذاهم، والتعاون على البر والتقوى الذي أمر الله تعالى بذلك لا يأتي بالعزلة، إذن الخلوة لا تعني البُعد الكلي عن الناس بل ينبغي مخالطة الناس، ودعوتهم إلى الخير، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتصحيح الأخطاء وإرشاد الضال.

ومما يحسن بيانه ـ مما يُقال هنا في أمر الخلطة والاعتزال ـ أن يجعل المسلم والداعية لنفسه خلوات تفكر في أمر منهجه وأعماله للتصحيح والتصويب والمراجعة والتأمل؛ لأن الانشغال المتوالي والكثير قد يعين الشيطان على نفسه من حيث لا يشعر فيضعف علمه وتقل عبادته، وصلته بربه، وخير منهج في ذلك منهج القدوة عليه الصلاة والسلام، فله وقفات وتأملات وأحوال خاصة، ألا ترى ـ أخي الداعية ـ إلى فرضية قيام الليل عليه من الله

تعالى؟ وكذا حرصه عليه الصلاة والسلام على الاعتكاف في شهر رمضان وهو الانقطاع للعبادة والقراءة والصلاة والاستغفار، فليقتدِ الدُعاة بإمام الدُعاة عليه الصلاة والسلام. فيجعلون ضمن برامجهم الحياتية مثل تلك الخلوات التي تكون زاداً لهم في مسيرتهم في هذه الحياة وهم سائرون إلى الله والدار الآخرة.

* * *

الوقفة الثالثة: فجاءه الحق

وفي رواية مسلم: فَجِئَهُ الْحَقّ، أي جَاءَهُ الْوَحْي بَغْتَة فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَكُنْ مُتَوَقِّعاً للوحي. كما قاله النووي.

وفي ذلك رد مبرم على افتراء المستشرقين أن محمداً ﷺ قد ادَّعىٰ النبوة بعد تخطيط دقيق وإعداد سابق أو تعلم من أهل الكتاب؛ لأنه لو كان كذلك لم يقل: حتى فجئه الحق؛ لأن الفجأة يناقض الإعداد السابق، ومن المفترين من أثار الشبهة أن محمداً ﷺ كان يتطلع النبوة ولذا كان يخلو في غار عسى ينزل عليه الوحي، وهي شبهة واهية لرواية ابن إسحاق أن الله سبحانه هو الذي حبّب إليه الخلوة فلم يكن شيء أحب إليه من الخلوة.

يقول الدكتور مصطفى السباعي: إن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يكن يستشرف النبوة ولا يحلم بها، وإنما كان يلهمه الله الخلوة للعبادة تطهيراً، وإعداداً روحيًّا لتحمل أعباء الرسالة، ولو كان عليه الصلاة والسلام يستشرف للنبوة لما فزع من نزول الوحي عليه، ولم ينزل إلى خديجة يستفسرها عن سر تلك الظاهرة التي رآها في غار حراء، ولم يتأكد من أنه رسول إلا بعد رؤيته جبريل يقول له: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، وإلا بعد أن أكد

له ولخديجة ورقة بن نوفل أن ما رآه في الغار هو الوحي الذي كان ينزل على موسى عليه الصلاة والسلام[١].

وقد ردَّ القرآن على مزاعم المستشرقين مرات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢].

في هاتين الآيتين دليل واضح على أن النبي ﷺ لم يكن متوقعاً لنزول الوحي عليه ولم يكن يخطط لادعاء النبوة بإعدادات مسبقة، بل فجئه الحق، جاءه الوحي بغتة ففزع وخاف على نفسه. وفي ذلك رد أيضاً على افتراء المستشرقين أن النبي ﷺ تلقى علوماً من أهل الكتاب، وقد رد أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان: ٥، ٦].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا ﴾ يعنون كتب الأوائل أي استنسخها ﴿ فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي تقرأ عليه ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ أي في أول النهار وآخره، وهذا الكلام

(١) «السيرة النبوية ـ دروس وعبر»، ص(٥٥، ٥٦).

لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل أحد بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمداً رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه ونزاهته، وبره وأمانته، وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره وإلى أن بعث الأمين؛ لما يعلمون من صدقه وبره، فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا فيما يقذفونه به؛ فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب، وقال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾ [الفرقان: ٩].

كما أن المستشرقين قد أثاروا الشبهة في لقاء النبي ﷺ ببحيرى الراهب في سفره إلى الشام مع عمه أبي طالب، ولم يبلغ من عمره إذ ذاك إلا اثنتي عشرة سنة، والحديث كما ذكره الترمذي في سننه عن أبي موسى قال: خرج أبوطالبٍ إلى الشام وخرج معه النبي ﷺ في أشْيَاخٍ من قريش، فلمَّا أشْرَفُوا على الراهِب هَبَطُوا فحَلُّوا رِحَالَهُمْ، فخَرَجَ إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت، قال: فهم يَحُلُّون رحَالَهُمْ فجَعَلَ يتَخَلَّلُهُمْ الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ قال: هذا سيِّدُ العَالَمِين،

هذا رسولُ ربِّ العالمين، يبعثه اللهُ رحمةً للعالمين، فقال له أشياخٌ من قريش: ما عِلْمُكَ؟ فقال: إنكم حين أشْرَفْتُمْ مِنْ العَقَبَةِ لم يبقَ شَجَرٌ ولا حَجَرٌ إلا خرَّ ساجداً، ولا يَسْجُدان إلا لنبيٍّ، وإني أعرِفُهُ بخَاتَم النبوَّة أسفل من غُضْرُوف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهم به وكان هو في رعية الإبل قال: أرسِلُوا إليه، فأقبَل وعليه غمامة تُظِلُّهُ، فلمَّا دَنَا من القَوم وجدهم قد سبقوه إلى فيءِ الشجرة، فلما جلس مال فيءُ الشجرة عليه فقال: انظروا إلى فيءِ الشجرة مال عليه، قال: فبينما هو قائم عليهم وهو يُناشِدُهُم أن لا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إذا رأوه عرفوه بالصِّفَة فيقتلونه، فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا إن هذا النبي خارجٌ في هذا الشهر، فلم يبق طريقٌ إلا بُعِثَ إليه بأُنَاسٍ، وإنَّا قد أُخْبِرْنَا خَبَرَه بُعِثْنَا إلى طريقك هذا، فقال: هل خَلْفَكُمْ أحدٌ هو خَيْرٌ منكم؟ قالوا: إنَّمَا أُخْبِرْنَا خَبَرَهُ بطريقِك هذا، قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحدٌ من الناس ردَّه؟ قالوا: لا، قال: فبَايَعُوهُ وأقاموا معه، قال: أنْشُدُكُم بالله أيُّكُم وَلِيُّه؟ قالوا: أبوطالبٍ، فلم يزل يُنَاشِدُهُ حتى ردَّهُ أبوطالبٍ، وبَعَثَ معه أبوبكر بلالاً، وزَوَّدَهُ الرَّاهِبُ من الكعك والزيت. قال أبوعيسى: هذا حديث حسنٌ غريب لا نعرفه

إلا من هذا الوجه[١].

ورواه الحاكم في المستدرك في كتاب التاريخ (باب ذِكْر أخبار سيد المرسلين ﷺ) كما رواه البيهقي في الدلائل (باب في خروج النبي مع أبي طالب..) هذا ولكن الزرقاني في شرحه على المواهب اللدنية للقسطلاني طبعة دار المعرفة (١/١٩٦) قال ما مفاده أن الذهبي ضعف الحديث لقوله في آخره: وبعث معه أبوبكر بلالاً، فإن أبابكر إذ ذاك لم يبلغ عشر سنين، وبلال لم يكن قد خلق بعد، ولم يشتره أبوبكر إلا بعد إسلامه واستنقاذه من تعذيب أمية بن خلف.

والمعروف أن أصحاب السير يتساهلون في قبول كثير من الأخبار التي سبقت البعثة النبوية، وقد استغل بعض أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم هذه الأخبار فجعلوا من التقاء الرسول ﷺ ببحيرا الراهب مدخلاً للطعن على الإسلام، فادعوا أن الرسول ﷺ أخذ عنه بعض علوم الأولين وأصول ديانتهم واقتبس منها دينه الجديد..، وهل يصدق عاقل بأن الرسول ﷺ وهو في الثانية عشرة من العمر وفي لقاء عابر أثناء سفر شاق تلقى علوم الأولين والآخرين؟ كما يخرف أدعياء العلم من المستشرقين وتلاميذهم

---

(١) رواه الترمذي في المناقب، باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ (٣٦٢٠)، وقد ذكره ابن إسحاق، وينظر: سيرة ابن هشام (١/٢٢٧، ٢٢٨).

ليجعلوا مصدر الإسلام بشرياً أرضياً لا وحياً سماوياً؟!

ونحن لا نريد بهذا أن ننفي الخبر برمته، فهو إحدى البشارات الصحيحة التي سبقت البعثة، ولكننا نرفض ما أضيف إليه من خيالات الرواة والقصاصين، وهي زيادات إما أنها منكرة متناقضة في متونها، وإما أنها ضعيفة مكذوبة في أسانيدها[1].

* * *

(١) من كلام د. محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين مستو في «حاشية الفصول في سيرة الرسول ﷺ»، ص(٩٤).

الوقفة الرابعة: فجاءه الملك فقال: اقرأ

قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد. . .

وفعل جبريل ذلك بالنبي ﷺ ثلاث مرات، وفي كل مرة بلغ منه الجهد، قَوْله ﷺ: «**ما أنا بقارئ**» معناه لا أُحْسِن القراءة فما نافية، ومنهم من جعلها استفهامية أي: ماذا أقرأ؟ وهو قول ضعيف.

قوله ﷺ: «**فَغَطَّني حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرسلني**» قال ابن حجر: قال العلماء: والحكمة في الغَطّ شَغْله من الالتفات والمبالغة في أمره بإحضار قلبه لما يقوله له وكرره ثلاثاً مبالغة في التنبُّه، ففيه أنه ينبغي للمُعَلِّم أن يحتاط في تنبيه المُتَعَلِّم وأمره بإحضار قلبه والله أعلم. وفي مكان آخر قال ابن حجر: والحكمة في هذا الغط شغله عن الالتفات لشيء آخر أو لإظهار الشدة والجد في الأمر تنبيهاً على ثقل القول الذي سيُلقىٰ عليه.

فهذا الجهد الذي أصاب الرسول ﷺ من قِبَل جبريل كأنه إشارة إلى ثقل القول الذي سيتحمله، وكذا سيتحمله أصحابه من بعده، ثم جميع الدعاة إلى الله سبحانه، فالداعي إلى الله لابد أن يتهيأ ويستعد لحمل أعباء الدعوة ويتسلح بسلاح العلم والعمل، والجد والاجتهاد، والإخلاص والإنابة إلى الله، كما أن الداعي

يحتاج أن يكون له زاد التقوى وعدة قوية ومقدمات تسهّل عليه مهمات الدعوة، وقد أشار الله عز وجل إلى ذلك في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ وبعد ذكر هذه المقدمات قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ١ ـ ٥]. إذن لابدَّ من استعدادات مقدمة لحمل هذا العبء الثقيل تظهر في قوله وعمله وسلوكه في ظاهره وباطنه، لا يكون الإنسان داعية وهو لا يؤدي الصلاة في أوقاتها، وقد تفوته صلاة الجماعة، لا يمكن أن يكون داعية وهو يبخل في الإنفاق، وقد لا يخرج الزكاة، لا يمكن أن يكون الإنسان داعية وهو يهمل بيته ويقصر في تربية أولاده، وقد يجلب إليهم بعض آلات اللهو واللعب، فالداعية عليه أن يكون حازماً تجاه نفسه وتجاه أهله وتجاه الناس جميعاً، لابد له من التعلُّق بالله عز وجل بالقيام بالفرائض كلها على الوجه المطلوب ثم يعمل الإنسان ما استطاع من المستحبات والنوافل، فهذا التزود وتلك الاستعدادات من المهمات لمن يريد أن يشتغل في الدعوة.

* * *

الوقفة الخامسة: اقرأ باسم ربك الذي خلق

للعلم أهمية كبرى في ديننا الحنيف، وأهميته تتبيَّن في أن أول ما نزل هو قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق: ١-٥](١).

والحديث عن العلم والتعلم حديث تحبه النفوس المؤمنة، وترغبه الأنفس الطموحة، وتهواه العقول النيِّرة، فديننا الإسلامي دين العلم والمعرفة، دين النظر والتفكر، دين البحث والإنتاج، فالدين كله مبني على العلم، العلم بالله تعالى وبدينه، والعلم بأمره ونهيه، والعلم بمنهاج نبيه ﷺ، فلا يعبد العبد ربه على بصيرة إلا بالعلم، ولا تستقيم الأمة على المنهاج الصحيح إلا بالعلم، ولا تسير الدعوات الإصلاحية سيراً سليماً إلا بالعلم.

ومن هنا كان للعلم مكانة لا يوازيها شيء، ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كفى بالعلم شرفاً أن يدَّعيه من لا يحسنه، ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ذمًّا أن يتبرأ من هو فيه.

* **والعلم سبب لرفعة الفرد في الدنيا والآخرة، قال تعالى:**

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع يرجع إلى كتابنا «المنهجية في طلب العلم».

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة: ١١].

* **والعلم طريق موصل إلى الجنة**، روى مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مَن سَلَكَ طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله به طريقاً إلى الجنة**»(١).

* **والعلم ميراث الأنبياء**، والعلماء ورثة الأنبياء، كما صح بذلك الخبر عن سيد البشر ﷺ(٢).

* **والعالم والمتعلم صاحبا نور ووضاءة في الدنيا والآخرة**، فقد دعا لهما رسول الله ﷺ بقوله: «**نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأدَّاها كما سمعها، فرُبَّ مبلِّغ أوعىٰ من سامع**»(٣).

---

(١) جزء من حديث رواه ابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «**مَن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة**» الحديث. والترمذي في العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٠٢)، وأبوداود في العلم، باب الحث على طلب العلم (٣٢٧٥)، وأحمد في «مسند الأنصار» (٢٠٧٢٣)، ورواه البخاري تعليقاً في كتاب العلم، باب رقم (١٠).

(٢) فعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «... **وإن العلماء وَرَثَة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُوَرِّثُوا ديناراً ولا درهماً، وَرَّثُوا العلم، فمَن أخذه أخذ بحظٍّ وافر**». وبداية الحديث: «**مَن سَلَكَ طريقاً يلتمس فيه علماً**» انظر الهامش السابق.

(٣) أخرجه أبوداود في العلم برقم (٣٦٦٠)، باب فضل نشر العلم، والترمذي في العلم، برقم (٢٦٥٦، ٢٦٥٧، ٢٦٥٨)، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، وابن ماجه في المقدمة برقم (٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٦)، باب من بلّغ علماً، وفي المناسك، باب الخطبة يوم النحر برقم (٣٠٥٦)، وأحمد عن ابن مسعود برقم =

* **والعالم والمتعلم يفترقان عن غيرهما فرقاً شاسعاً في الدنيا والآخرة** ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

* **والعالم والمتعلم أعرف الناس بالله وأتقاهم وأخشاهم له؛** إذ إنهم عرفوا الله فعبدوه حق عبادته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ [فاطر: ٢٨].

* **وطالب العلم مأجور طوال حياته،** إذ إنه ساع في سبيل الله، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَن خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع**»(١).

* **والعلم حياة القلوب،** ونور البصائر، وشفاء الصدور، ودليل الحائرين، وهو الميزان الذي توزن به الأقوال والأفعال والأحوال، وهو الهادي إلى الهدى والرشد، والمنقذ من الضلال والهلاك، وهو الصاحب في الغربة، والكاشف عن الشبهة، مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم من الحاجة إلى الطعام والشراب.

* **ما هو هذا العلم الذي هذه أهميته وتلك فضائله؟**

= (٤١٤٦)، وأنس بن مالك برقم (١٢٩٣٧)، وجبير بن مطعم برقم (١٦٢٩٦، ١٦٣١٢)، وزيد بن ثابت برقم (٢١٠٨٠).

(١) أخرجه الترمذي في العلم، برقم (٢٦٤٧)، باب فضل طلب العلم، وقال: هذا حديث حسن غريب.

* **هذا العلم هو العلم الشرعي**: العلم بكتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ، العلم بتوحيده ومعرفة أحكام حلاله وحرامه.

* **هذا العلم** منه ما هو فرض عين يجب أن يعرفه كل واحد من المسلمين، وهو المعلوم من الدين بالضرورة، وما يجب عليه معرفته، كأركان الإسلام، من توحيد الله تعالى، ومعرفة أحكام الصلاة، وكذا إذا كان تاجراً وبائعاً ومشترياً معرفة البيع والشراء وما يتعلق بهما... وهكذا.

ومنه ما هو فرض كفاية في الأمة، ومندوب للأفراد وهو الذي ذكر فضله في صدر هذه الكلمات، وهو ما يتعلق به حاجة الأمة من بيان تفصيل أحكام الاعتقاد، وأحكام الحلال والحرام، وتفاصيل ما يتعلق بالآيات والأحاديث، وما يعضد ذلك من اللغة العربية وأحكامها.

إن ديننا الإسلامي دين علم ومعرفة، فالذي يريد أن يتعمق في هذا الدين ويريد أن يكون مرشداً للناس وواعظاً لهم لابدَّ أن يسبق ذلك العلم المبني على كتاب الله عز وجل وعلى سنة نبيه ﷺ، هذاالعلم هو الذي يقرب إلى الله عز وجل ويبعد عن الشيطان وكيده، فالعلم ضروري جداً لإبلاغ هذا الدين، فمن أراد أن يكون داعية إلى الله عز وجل فلابد أن يحصن نفسه بالعلم الشرعي المبني على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد ﷺ وعلى فهم أئمة هذا الدين وفقهاء هذه الأمة.

والدعوات الإصلاحية لا يمكن أن تسير سيراً حسناً، ولا أن تقوم بدعوتها، ولا أن تتبصر طريقها بدون هذا العلم، والدعاة لا يمكن أن يلتزموا المنهاج الصحيح، والطريق القويم إلا بالعلم، وأي دعوة لا تقوم على ذلك فيحكم عليها بالفشل والضلال، والتفرق. ولا أدل على ذلك من تصدير الوحي، وتصدير دعوة أفضل الأنبياء والمرسلين بهذه الكلمات الآمرة بالعلم، فلتكن هذه الواقعة منطلقاً لتأمُّل الدعاة والدعوات لتعيد النظر في مناهجها وتصحح مسارها وتبني مواقفها على هذا العلم. حقق الله تعالى ذلك.

* * *

الوقفة السادسة: موقف المرأة الصالحة مع زوجها الداعية

ولمَّا نزل الوحي على النبي ﷺ وفزع لما رآه من المنظر الغريب عليه حال الوحي من رؤية الملك وغطه ثلاث مرات، خشي على نفسه وجاء إلى زوجته وأخبرها بما رآه وقال: لقد خشيت على نفسي، وهنا جاء دور المرأة الصالحة الحصيفة في تسلية زوجها وتهدئة روعه فقالت له خديجة: «كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». قال ابن حجر: قال العلماء رضي الله عنهم: معنى كلام خديجة رضي الله عنها: إنك لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق وكرم الشمائل. وذكرت ضروباً من ذلك، وفي هذا دلالة على أن مكارم الأخلاق وخِصال الخير سبب السلامة من مصارع السوء. وفيه مدح الإنسان في وجهه في بعض الأحوال لمصلحة نظراً. وفيه تأنيس من حصلت له مخافة من أمر وتبشيره وذكر أسباب السلامة له. وفيه أعظم دليل وأبلغ حُجَّة على كمال خديجة رضي الله عنها، وجزالة رأيها، وقوة نفسها، وثبات قلبها، وعظم فقهها. والله أعلم.

إن وجود زوجة صالحة نعمة عظيمة من الله تعالى ومِنَّة جليلة، وخديجة رضي الله عنها قد ساعدت رسول الله ﷺ في أحرج الأوقات، وآزرته كل المؤازرة في إبلاغ رسالة ربّه، وواسته بنفسها ومالها طيلة الحياة الزوجية مع رسول الله ﷺ، وقد قامت بجميع حقوق الزوج خمساً وعشرين سنة؛ خمس عشرة سنة قبل النبوة وعشر سنوات بعد أن شرفه الله سبحانه بالنبوة، ولذا لما توفيت خديجة رضي الله عنها قد خيَّم عليه الحزن الشديد، ولذا كان يذكرها كثيراً وحتى بعد سنوات عدة.

فعن عائشة قالت: كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنىٰ عليها فأحسن الثناء قالت: فغرت يوماً فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق، قد أبدلك الله عز وجل بها خيراً منها. قال: «**ما أبدلني الله عز وجل خيراً منها؛ قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء**»[1].

قال القرطبي ـ كما في «الفتح» ـ: كان حبه ﷺ لها لما تقدم ذكره من الأسباب، وهي كثيرة، كل منها كان سبباً في إيجاد المحبة. ومما كافأ النبي ﷺ به خديجة في الدنيا أنه لم يتزوج في حياتها غيرها، فروى مسلم من طريق الزهري عن عروة عن عائشة

---

(١) رواه أحمد في «باقي مسند الأنصار» (٢٤٣٤٣).

قالت: «لم يتزوج النبي ﷺ على خديجة حتى ماتت». وهذا مما لا اختلاف فيه بين أهل العلم بالأخبار، وفيه دليل على عظم قدرها عنده وعلى مزيد فضلها لأنها أغنته عن غيرها واختصت به بقدر ما اشترك فيه غيرها مرتين؛ لأنه ﷺ عاش بعد أن تزوجها ثمانية وثلاثين عاماً انفردت خديجة منها بخمسة وعشرين عاماً وهي نحو الثلثين من المجموع، ومع طول المدة فصان قلبها فيها من الغيرة ومن نكد الضرائر الذي ربما حصل له هو منه ما يشوش عليه بذلك، وهي فضيلة لم يشاركها فيها غيرها.

ومما اختصت به: سبقها نساء هذه الأمة إلى الإيمان، فسنت ذلك لكل من آمنت بعدها، فيكون لها مثل أجرهن، وقال النووي: في هذه الأحاديث دلالة لحسن العهد، وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والمعاشر حياً وميتاً، وإكرام معارف ذلك الصاحب.

ومن الجزاء الحسن الذي لاقته خديجة رضي الله عنها غير ما ذكر من حسن العهد والثناء عليها من قبل النبي ﷺ في هذه الدنيا أنها قد بشرت بالجنة وسلم عليها الرب ذو الجلال والإكرام وجبريل عليه السلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشِّرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا

نصب[١].

ويمكن أن نستنبط من خلال مواقف خديجة رضي الله عنها مع الرسول ﷺ الخصال الحميدة التالية الذكر التي يجب أن تتخلَّق به كل امرأة مسلمة:

١ ـ **النصح الخالص لزوجها**، وهو واضح في كثير من مواقف خديجة في إعداد الزاد بيديها عندما كان الرسول ﷺ يخلو بغار حراء، وتسليته عندما خشي على نفسه وذلك بذكر ما كان يفعله رسول الله ﷺ من الأعمال الجليلة من صلة الرحم وكسب المعدوم وقرى الضيف ومعاونة المحتاج، وكذلك ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل لمزيد من الاطمئنان. فالزوجة الصالحة هي تلك التي تكون عوناً لزوجها في مهماته وبخاصة إذا كانت تلك المهمات دعوية أو جليلة في خدمة الوالدين أو الأرحام أو المجتمع أو الأمة بأسرها فتشترك معه في الأجر والثواب.

٢ ـ **أن تكون المرأة المسلمة عاقلة حصيفة وأن تستخدم عقلها في خدمة الإسلام وخدمة الزوج والأولاد**، وهذا الأمر يظهر بوضوح في كثير من تصرفاتها، وأولها وأهمها في اختيار شريك حياتها، فلم تهتم بالمال أو الجمال أو الرتبة، وإنما لاحظت في من يكون زوجها هل هو أمين؟ هل هو صاحب خلق ودين؟ يقول

---

(١) رواه البخاري في مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣٨٢٠).

ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها؛ من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لهاإلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها ميسرة؛ فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذاك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام، فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسرة فقال له: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، قال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة ـ فيما يزعمون ـ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف أو قريباً، وحدَّثها ميسرة عن قول الراهب، وعما كان يرى من إظلال الملكين إياه.

وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة مع ما أراد الله بها من كرامته، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له ـ فيما يزعمون ـ: يا ابن عم، إني قد رغبت فيك؛

لقرابتك ووسطتك في قومك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها وكانت خديجة يومئذٍ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه(١).

فخديجة رضي الله عنها قدوة لجميع المسلمات في اختيار زوج صالح صاحب خُلُق ودين وأمانة كما جاء في الحديث، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**»(٢).

والمرأة التي لا تستخدم عقلها في اختيار زوج صالح وإنما تنظر إلى بهرج الدنيا وزينتها سوف تندم على فعلها وعلى سوء اختيارها، فالاختيار يكون على أساس الدين والتقوى، والأمانة والخُلُق، ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، فالزوج ضيق المعيشة ولكن مسلم حقاً لا يترك الصلاة ويحافظ على واجباته وسلوكه حسن، فهذا خير ألف مرة من الغني صاحب الأموال الطائلة أو الوجيه الذي لا صلة له بالدين ولا بالأمانة فهذا قد تستفيد المرأة من أمواله بأن تلبس أفخر الثياب، وتستعمل أغلى

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٢) رواه الترمذي في النكاح، باب ما جاء فيمن ترضون دينه فزوجوه (١٠٨٤، ١٠٨٥)، وابن ماجه في النكاح، باب الأكفاء (١٩٦٧).

الحلي، وتسكن في الفلل الفاخرة بل في القصور، ولكنها خسرت الدين وخسرت الآخرة وهو الخسران المبين.

ومن جهة أخرى قد فاز وأفلح ذلك الزوجان اللذان قام زواجهما على التعاون على البر والتقوى، يقول عليه الصلاة والسلام في حديث أبي هريرة: «**رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ثم أيقظت زوجها فصلى فإن أبى نضحت في وجهه الماء**»(١).

وعن أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كُتِبَا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات**»(٢).

٣ - إن خديجة رضي الله عنها كانت من السابقين الأولين، قال الزهري وقتادة وموسى بن عقبة وابن إسحاق والواقدي وسعيد بن يحيى: أول من آمن بالله ورسوله خديجة، وأبوبكر، وعلي، رضي الله عنهم(٣). وهذا أمر يتطلب من المرأة المسلمة أن

---

(١) رواه أبوداود في التطوع، باب قيام الليل (١٣٠٨)، والنسائي في قيام الليل، باب الترغيب في قيام الليل (١٦١١)، وابن ماجه في إقامة الصلوات (١٣٣٦).

(٢) رواه أبوداود في التطوع، باب قيام الليل (١٣٠٩)، وابن ماجه في إقامة الصلوات، باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل (١٣٣٥).

(٣) رواه الترمذي في النكاح، باب ما جاء فيمن ترضون دينه فزوجوه (١٠٨٤، ١٠٨٥)، وابن ماجه في النكاح، باب الأكفاء (١٩٦٧).

تكون سبَّاقة إلى الخير، مقدامة للصالحات، سدًّا منيعاً للشر، حصناً عظيماً تجاه المفاسد، ولا تكون كتلك المفسدة التي تفتح أبواب الشيطان على نفسها وأسرتها، فلتتق الله المرأة المسلمة في تصرفاتها ولتعلم أنها إذا سنَّت سنة حسنة فلها أجرها وأجر من عمل بها، وإذا سنَّت سنة سيئة فعليها وزرها ووزر من عمل بها. فالمسابقة إلى الخير والتنافس في أمر الخير مطلوب من كل مسلم ومسلمة، وليس لها أن تقول: القوامة للرجال وليس لنا إلا الطاعة، فهي حجة واهية، بل الذي نراه هو أن المرأة إذا كانت تصرفاتها حسنة تجاه الزوج والأولاد وكانت حقاً من إذا رآها زوجها سرَّته، وإذا أمرها أطاعته.

فالمرأة الصالحة تطيع زوجها إذا أمر، وتسره إذا نظر، وتحفظه إذا غاب، وتعينه على إيمانه وطاعة ربه، وتساعده على القيام بحقوقه، وتكون خير معين على تربية أبنائه.

فعلى الإنسان ألا يختار حين زواجه إلا المرأة الصالحة الصادقة التي تتمسك بشرع الله سبحانه وتعالى وتتخلَّق بالأخلاق الفاضلة، وكذا على الرجل ألا يختار لابنته أو أخته إلا رجلاً صالحاً، فلا يزوج لمال أو للمنصب، أو للجاه، أو للترف، وإنما يزوج بشرطين: الدين والخلق المتمثل في الأمانة، ونجد كثيراً من مشكلات اليوم لا تحصل إلا عندما يكون الزوجان غير صالحين، المشكلات الزوجية ومشكلات الأبناء ومشكلات البنات ومشكلات

المسكرات كل ذلك نتاج سوء التربية وعدم اختيار زوج موفق.

وخلاصة الأمر أن خديجة رضي الله عنها وضعت بهذا الموقف منهجاً عظيماً في تعامل المرأة الصالحة مع زوجها تأميناً وسكناً، وعوناً وثناءً، وتهدئة وطمأنينة.

إن هذا الموقف من خديجة رضي الله عنها منارة هدى لنسائنا المؤمنات الصادقات بأن يعاملن أزواجهن بمثل ما عاملت به خديجة رسول الله ﷺ، ومن أهم معالم ذلك ما سبق ذكره في الفقرات السابقة.

* * *

الوقفة السابعة: الخلق الحسن في الداعية

الأخلاق الطيبة والسلوك الحسن لها أثر طيب في نفوس المدعوين، والخلق الحسن أثقل شيء في الميزان، ولم يعط أحد خيراً من خلق حسن، والخلق الحسن مطلوب من المرء المسلم في كل حين، وخاصة عندما يدعو إلى الخير، فالناس أول ما يتأثرون بالرجل بسلوكه وخلقه وتعامله وليس بقوله وكلامه، ولذا لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ النبيِّ ﷺ قال لأخيه: ارْكَبْ إلى هذا الوادي، فاعْلَمْ لي عِلْمَ هذا الرَّجُل الذي يَزْعُمُ أنه نبيٌّ يأتيهِ الخَبَرُ من السماء، واسمع من قوله ثم ائْتني، فانطَلَقَ الأخ حتى قَدِمَهُ وسمع من قوله ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وكلاماً ما هو بالشِّعْر.

وكان من دعاء النبي ﷺ في الاستفتاح في الصلاة: «**واهدني لأحسن الأخلاق لا يهديني لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت**»، وكان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء**». وكان يدعو: «**اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق**». والرجل إنما يدعو الله شيئاً يحبه ويحرص عليه، وفي مسند أحمد يقول الرسول ﷺ: «**إنما بُعِثْتُ لأُتمم صالح الأخلاق**». وفي حديث طويل رواه أحمد

في مسنده قد ذكر الرسول ﷺ أنواعاً من الأخلاق منها أخلاق طيبة المطلوب من المسلم أن يطبقها في حياته ومنها أخلاق سيئة المطلوب من المسلم أن يتجنبها ويتعوَّذ منها، فعَن أبي سعيدٍ الخُدريِّ قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاةَ العصر ذات يوم بنَهَار ثم قام يخطبنا إلى أن غابت الشمس فلم يَدَعْ شيئاً مما يكون إلى يوم القيامة إلا حدَّثناه حَفِظَ ذلك مَن حَفِظَ ونسي ذلك من نسي، وكان فيما قال: «يا أيها الناس إنَّ الدُّنيا خَضِرَةٌ حُلْوةٌ وإن الله مستخلفكم فيها فناظِرٌ كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، ألا إن لكلِّ غَادِرٍ لواءً يوم القيامة بقَدْر غَدْرَتِهِ يُنْصَبُ عند اسْتِهِ يُجْزَى به، ولا غَادِرٍ أعظم من أمير عامَّةٍ، ثم ذَكَرَ الأخْلاقَ فقال: يَكُونُ الرجل سريع الغضب قريب الفَيْئَةِ فهذه بهذه، ويكون بطيء الغضب بطيء الفَيْئَة فهذه بهذه، فخَيْرُهُمْ بطيء الغضب سريع الفيئة وشرُّهم سريع الغضب بطيء الفيئة، قال: وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم تتوقَّد ألم تروا إلى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وانتفاخ أوْدَاجِهِ فإذا وَجَدَ أحدُكُم ذلك فليجلس أو قال: فليلصق بالأرض، قال: ثم ذَكَرَ المُطَالَبَةَ فقال: يكون الرجل حَسَنَ الطَّلَبِ سَيئَ القضاء فهذه بهذه، ويكون حَسَنَ القضاء سَيئَ الطلب فهذه بهذه، فخيرهم الحسن الطلب الحسن القضاء، وشرهم السيئ الطلب السيء القضاء، ثم قال: إن الناس خُلِقوا على طبقات، فيُولَدُ الرجل مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت مؤمناً، ويولد الرجل كافراً ويعيش كافراً ويموت كافراً، ويولد

الرجل مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت كافراً، ويولد الرجل كافراً ويعيش كافراً ويموت مؤمناً، ثم قال في حديثه: وما شيء أفضل من كلمةِ عدلٍ تُقَالُ عند سلطان جائر فلا يمنعن أحدكم اتِّقَاء الناس أن يتكلم بالحق إذا رآه أو شهده. ثم بكى أبوسعيد فقال: قد والله مَنَعَنَا ذلك، قال: وإنكم تُتِمُّون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله، ثم دَنَتْ الشمسُ أن تغرب فقال: وإن ما بقي من الدنيا فيما مضى منها مثل ما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»[1].

* * *

وفيما يلي بعض النماذج من سيرة المصطفى ﷺ عن الأخلاق الطيبة التي قد أثَّرت في النفوس أثراً بالغاً منها:

* عن معاوية بن الحكم السُّلَميِّ قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عَطَسَ رجلٌ من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم فقلت: واثُكْل أمِّيَاه ما شأنكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يُصَمِّتُونَنِي لكنِّي سَكَتُّ، فلمَّا صلَّى رسول الله ﷺ ـ فبأبي هو وأمي ـ ما رأيت مُعَلِّماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كَهَرَني ولا ضربني ولا

(١) رواه الترمذي في الفتن، باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه (٢١٩١)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في «باقي مسند المكثرين» (١١١٩٣).

شتمني، قال: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»، أو كما قال رسول الله ﷺ[١].

* عن أبي هريرة أن أعرابياً دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس فصلَّى قال ابن عَبْدَةَ: ركعتين، ثم قال: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً. فقال النبي ﷺ: «**لقد تَحَجَّرْتَ وَاسِعاً**»، ثم لم يلبث أن بال في ناحية المسجد، فأسرع الناس إليه، فنهاهم النبي ﷺ وقال: «**إنَّما بُعِثْتُم مُيَسِّرين ولم تُبْعَثُوا مُعَسِّرين، صُبُّوا عليه سَجْلاً من ماء أو قال: ذَنُوباً من ماء**»[٢].

* عن أنس أن رجلاً سأل النبي ﷺ فأعطاه غَنَماً بين جبلين فأتى قومه فقال: أيْ قوم أسلِموا فوالله إن محمداً ليُعطي عطاءَ من لا يخاف الفَاقَة. وإن كان الرجل ليجيء إلى رسول الله ﷺ ما يُريدُ إلا الدُّنيا فما يُمْسي حتى يكون دينه أحبَّ إليه أو أعزَّ عليه من الدنيا وما فيها[٣].

* عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه غَزَا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ نجدٍ فلمَّا قَفَلَ رسولُ الله ﷺ قَفَلَ معه، فأَدْرَكَتْهُمْ القَائِلَةُ

---

(١) رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧).
(٢) رواه أبوداود في الطهارة، باب الأرض يصيبها البول (٣٨٠).
(٣) رواه أحمد في «باقي مسند المكثرين» (١٣٦١٥).

في وادٍ كثير العِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرَةٍ وعَلَّق بها سيفه، ونِمْنَا نومة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا وإذا عنده أعرابي فقال: إنَّ هذا اختَرَطَ عليَّ سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صَلْتاً فقال: مَنْ يمنعُكَ مني؟ فقلت: اللهُ ثلاثاً. ولَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَس[1]. قال ابن حجر: فمنَّ عليه لشدة رغبة النبي ﷺ في استئلاف الكفار ليدخلوا في الإسلام، ولم يؤاخذ بما صنع وعفا عنه.

والنماذج كثيرة، لا يمكن إحاطتها بمثل هذه الوقفة، وإنماهي إشارات إلى أهمية جانب الأخلاق في حياة الدعاة، بل عليهم أن يعضوا عليها بالنواجذ وبذا سوف ينجحون في دعوة الناس إلى الله وإلى تعاليم الإسلام. فالداعية لا يمكن أن يكون ناجحاً وفي قلبه حسد أو كبر أو غرور أو إعجاب بنفسه أو احتقار للآخرين. فأهم الأمور في حياة الداعية هو الخُلُق الحسن والسلوك الطيب، ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهنا في هذا الحديث ذكرت خديجة رضي الله عنها جانباً من أخلاقه عليه الصلاة والسلام حتى قبل البعثة، هذه الأخلاق التي تؤهل الإنسان إلى أعالي الأمور، وقمم المعالي، فليعِ كل مسلم

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير، باب مَن علَّق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة (٢٩١٠، ٢٩١٣، ٤١٣٥).

فضلاً عن كل داعية هذه الصفات ليقتدوا بها، ولعل من أهمها:

- نفع الآخرين بأي وسيلة عملية أو بدنية أو مالية أو خلقية.
- الصبر على هذه الأخلاق والأعمال، وتحمُّل أذى الآخرين وحسدهم وحقدهم.
- إخلاصها لله سبحانه وتعالى.
- التواضع وخفض الجناح.
- وغيرها مما لا يخفى..

* * *

الوقفة الثامنة: استشارة أولي النهى في الأمور المعقدة

إن الداعية كغيره من الناس قد يعتريه مشاكل في حياته الدعوية أو حياته الخاصة، فعليه حينئذٍ أن يستشير أولي العقول المستقيمة، وهذا ظاهر في رجوع النبي ﷺ إلى زوجه بعد أن نزل عليه الوحي وخشي على نفسه من هول ما رآه فقال: «**زملوني زملوني**» فزملوه؛ ولما ذهب عنه الروع وتحدَّث عما رآه فثبّتت قلبه وخفّفت عن خوفه وقالت: كلا والله لا يحزنك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم ذهبت به خديجة رضي الله عنها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى .وكان عنده من علم الكتاب وهو الإنجيل، فقال: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره الرسول ﷺ خبر ما رأى، فقال له: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى. وهكذا تمت الاستشارة من أحب الناس إليه وهي خديجة رضي الله عنها ثم من أعقل الناس حينئذٍ وهو ورقة بن نوفل.

فهذا السياق يعطينا درساً مهمًّا يتمثل في أمرين: **الأمر الأول**: أن الإنسان تمر عليه مشكلات وقضايا ويعتريه هموم وغموم أحياناً فلابد إذاً لمواجهة تلك المشكلات وحلّها أن يختار مَن يستشير

لعرضها عليه لكي يرشده إلى حل ولكي يبعد عنه غمّه وهمّه وحزنه.

فإذا اعترض الإنسان مشكلة في حياته وخصوصاً فيما يعترض سيره إلى الله عز وجل، فلابد أن يعرض نفسه على مَن يثق به وعلى من عنده شيء من العلم والخبرة في هذا الأمر لكي يدله ويرشده إلى الصواب، **والأمر الثاني**: أن الإنسان إذا استشير في أمر الخير فعليه أن يبيِّن النُصح وأن يمحض الحقيقة وأن يدل على الخير فيما استُشِير فيه، بهذا يكون المجتمع مجتمعاً متناصحاً يتعاون على البِر والتقوى ويصل إلى الخير.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ أن يشاور الناس فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال ابن سعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره.

ومنها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

ومنها: أن فيها تسميحاً لخواطرهم وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس إذا جمع أهل الرأي والفضل وشاورهم في حادثة من الحوادث اطمأنت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس بمستبد عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته،

لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف مَن ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة، ولا يطيعونه وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب فليس بملوم، فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ ـ وهو أكمل الناس عقلاً وأغزرهم علماً وأفضلهم رأياً ـ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فكيف بغيره.

وعندما نرى في سيرة رسول الله ﷺ نجد أمثلة طيبة في ذلك، فمنها:

* أن النبي ﷺ لمَّا رأى ما بالمسلمين من البلاء من قِبَل كفار قريش أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة فقال لهم: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه**»، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفِراراً إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة في الإسلام. وبذلك نجوا من فتنة الكفار لعهد طويل.

* ومن ذلك مشاورة النبي ﷺ الصحابة في كيفية إعلام

الناس بدخول وقت الصلاة، ففي الحديث المتفق عليه عن نافع أن ابن عمر كان يقول: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس ينادى لها فتكلموا يوماً في ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بل بوقاً مثل قرن اليهود، فقال عمر: أولا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة، فقال رسول الله ﷺ: يا بلال قم فناد بالصلاة[١].

* وقبل غزوة بدر استشار النبي ﷺ الصحابة فقال: أشيروا عليَّ أيها الناس. فلما تكلم سعد بن معاذ بما قرَّت به عين رسول الله ﷺ فقال: سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم. ثم لما نزل بأدنى ماء من بدر قال الحباب بن المنذر: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نعور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون؛ فقال رسول الله ﷺ: «**لقد أشرت بالرأي**»[٢]. وهكذا قد استفاد رسول

---

(١) رواه البخاري في الأذان، باب بدء الأذان (٦٠٤)، ومسلم في الصلاة، باب بدء الأذان (٣٧٧).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢١٠).

الله ﷺ برأي صحابي له بل حسن رأيه.

* في الحديبية بعد أن تم الصلح أمر النبي ﷺ بالنحر والحلق فقال: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال الزهري: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج رسول الله ﷺ فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك؛ نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً[1].
وهكذا جاء نتاج المشورة.

* وليعلم أن المستشار مؤتمن كما ورد في الحديث، فلا ينبغي له أن يكتم النصح في إبداء الرأي الحسن ولا أن يخون المستشير بكتمان المصلحة. وقد استشارت فاطمة بنت قيس النبي ﷺ فيمن خطبها فأشارت إلى من يصلح لها، فعن أبي بكر بن أبي الجهم بن صخير العدوي قال: سمعت فاطمة بنت قيس تقول: إن زوجها طلَّقها ثلاثاً فلم يجعل لها رسول الله ﷺ سكنى ولا نفقة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**إذا حللت فآذنيني**» فآذنته، فخطبها

(١) «تفسير ابن كثير» تفسير سورة الفتح.

معاوية وأبوجهم وأسامة ابن زيد، فقال رسول الله ﷺ: «**أما معاوية فرجل ترب لا مال له، وأما أبوجهم فرجل ضرَّاب للنساء، ولكن أسامة بن زيد**». فقالت بيدها هكذا: أسامة أسامة، فقال لها رسول الله ﷺ: «**طاعة الله وطاعة رسوله خير لك**». قالت: فتزوجته فاغتبطت[1].

* * *

(١) رواه مسلم في الطلاق، باب المطلقة البائن لا نفقة لها (١٤٨٠).

الوقفة التاسعة: الحرص على أعمال الخير

وذلك يتمثل في قول ورقة بن نوفل: «يا ليتني فيها جَذَعاً» يُعْنَى شابًّا قويًّا حتى أَبَالِغ في نُصْرَتك. وفي قوله: «وإن يُدْرِكني يومك» أي وقت خروجك. «أنصُرك نَصْراً مؤزراً».

وهكذا ينبغي للمسلم أن يكون حريصاً على أعمال الخير لا يفتر عنها أبداً بل يسارع إليها، وفوق ذلك يتمنى أن يكون له موقف في نصرة الحق وأهله، وحتى إذا وجد الفرصة اغتنمها وسابق إليها، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: **«لا حسدَ إلا في اثنتين: رجل عَلَّمَهُ اللهُ القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار فسمعه جارٌ له فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعَمِلْتُ مثل ما يَعْمَل، ورجل آتاه الله مالاً فهو يُهْلِكُهُ في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل»**[1].

وهذا الحرص على أعمال الخير يكسب الطمأنينة في هذه الحياة الدنيا والفوز بالجنة والنجاة في الآخرة. والمسلم عليه أن يحرص على مصلحته الأخروية أكثر من مصلحته الدنيوية؛ لأن الحرص على ما ينفع الإنسان في الآخرة هو المقصود الأعظم،

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن (٥٠٢٦).

والدنيا ما هي إلا مجال لتحقيق عبودية الله تعالى في الأرض، فالهدف والغاية الجليلة هي ما ينفع الإنسان في الآخرة، فالدنيا معبر للآخرة، وهي كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٠، ٢١]. فالبشرى لمن جعل هذه الحياة الدنيا معبراً وطلب مغفرة ورضواناً من الله وجنة عرضها السماوات والأرض؛ لأن الدنيا كما وصفها الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه عبدالله بن مسعود قال: نَامَ رسول الله ﷺ على حَصِيرٍ فقام وقد أثَّر في جَنْبِهِ فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وِطَاءً؟ فقال: «ما لي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظلَّ تحت شجرةٍ ثم راحَ وتركها»[1].

فالرابح من يسعى سعياً حثيثاً إلى ما يحقق مصلحته الأخروية، والراحة في الحياة الأبدية، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، ومن سعى للآخرة سهَّل الله له أمور الدنيا، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ

(١) رواه الترمذي في الزهد، باب حديث ما الدنيا إلا كراكب استظل (٢٣٧٧)، وابن ماجه في الزهد، باب مثل الدنيا (٤١٠٩).

لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ [الليل: ٥ ـ ٧]، وقال ﷺ: «مَن كانت الآخرة هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِناه في قلبه وجَمَعَ له شَمْلَهُ وأَتَتْه الدنيا وهي راغمة، ومَن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرَّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»(١).

كما يؤخذ من قول ورقة بن نوفل أن الإنسان مطالَب بما يستطيع، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ولكن الإنسان لا يترك ما هو مستطاع لديه، ومثال ذلك: الذي يقدر القيام فعليه الصلاة قائماً، والذي لا يقدر القيام ويقدر على الجلوس يصلي جالساً، والذي لا يقدر على الجلوس فهو يصلي على الجنب، هذا، والذي يقدر على الجلوس ولا يقدر على القيام ليس له أن يصلي على الجنب، بل عليه أن يصلي جالساً فهو باستطاعته، وهكذا بقية أعمال الخير كل يعمل بما يستطيع، فالذي يستطيع نصرة الدين بالمال فعليه النصرة بالمال، والذي يستطيع نصرته بقوة جسمه فعليه أن ينصره بها، والذي يقدر أن ينصره بلسانه وبقلمه فعليه أن يفعل ذلك، والذي يستطيع نصرته بالقول والمال فلا يجوز أن يكتفي بالقول فقط، ولا يجوز الاكتفاء بالتمني إلا لمن لا يقدر على شيء من ذلك، وصحَّ عن الحسن أنه قال: ليس الإيمان

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة، باب أحاديث: ابتلينا بالضراء، ومن كانت الآخرة همه، وابن آدم تفرغ لعبادتي (٢٤٦٥)، وابن ماجه في الزهد، باب الهم بالدنيا (٤١٠٥).

بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل.

ومن هنا فليعلم الدعاة أن من أهم الزاد لهذه الدعوة التنافس في أعمال الخير المتعددة، والتسابق فيها.

* * *

الوقفة العاشرة: الابتلاء من سنن الدعوة

ويتبين ذلك من قول ورقة بن نوفل: لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي.

إن الإنسان يبتلى في هذه الدنيا بأنواع من الابتلاءات بالخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، فعن أبي العلا بن الشخير قال: حدَّثني أحد بني سليم ـ ولا أحسبه إلا قد رأى رسول الله ﷺ ـ أن الله تبارك وتعالى يبتلي عبده بما أعطاه، فمن رضي بما قسم الله عز وجل له بارك الله له فيه ووسعه، ومن لم يرض لم يبارك له[1]. فالابتلاء من سنن الله عز وجل لجميع العباد، ولكن من يقوم بهمِّ الدعوة فهو أشد ابتلاء من غيره، ولذا أشدهم بلاء الأنبياء، يقول الرسول ﷺ: **«أشد الناس بلاء الأنبياء ثم العلماء ثم الأمثل فالأمثل»**[2].

والعلماء أشد الناس بلاء بعد الأنبياء، لأنهم ورثتهم في العلم والعمل والتعليم والدعوة، وإلا كم من عالم يشهد علمه عليه يوم القيامة.

---

(١) رواه أحمد في «أول مسند البصريين» (١٩٧٦٨).
(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٤٦٥) (٣/ ٣٤٣).

ولأن الرسول ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين فبلاؤه كان أشد من غيره من الأنبياء. فقد ابتلي النبي ﷺ في مكة بعد تشرفه بالنبوة بالأذى والمِحن؛ عذب من قبل قومه، ووضع عليه سلا الجزور، وقوطع وحوصر هو ومن معه في شعب أبي طالب، ابتلي بالاستهزاء والسخرية، وبوصفه بأنه مجنون وساحر وكاهن وشاعر، خرج إلى الطائف فآذاه أهله أشد الإيذاء عندما عرض الإسلام على قادة هذا البلد، ثم خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة ومكة كانت مولده ومنشأه، وفيها أولاده وأقاربه، وفي يوم أُحُد كُسِرَت رباعيَّته وشُجَّ فجعل الدم يسيل على وجهه، وجاء في ابن ماجه وأحمد عن أنس قال: جاء جبريل عليه السلام ذات يوم إلى رسول الله ﷺ وهو جالس حزين قد خضب بالدماء قد ضربه بعض أهل مكة فقال: «**ما لك؟ قال: فعل بي هؤلاء وفعلوا. قال: أتحب أن أُريك آية؟ قال: نعم أرني فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، قال: ادع تلك الشجرة، فدعاها فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، قال: قل لها فلترجع، فقال لها فرجعت حتى عادت إلى مكانها، فقال رسول الله ﷺ: حسبي**»[1]. إذاً لابد من الابتلاء والامتحان لكل داع إلى الله، ولابد من تحمل الأذى والصبر عليه، ولا يخرج الإنسان من مدرسة الدعوة إلا ويمر بهذا الابتلاء، وكل يبتلى بحسب دينه وإيمانه.

---

(١) رواه ابن ماجه في الفتن، باب الصبر على البلاء (٤٠٢٨)، وأحمد في «باقي مسند المكثرين» (١١٧٠٢).

وحكى رسول الله ﷺ نبياً عن موقفه المثالي حين أوذي من قِبَل قومه، فعن عبدالله بن مسعود قال: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»(١).

وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلىٰ الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة**»(٢).

وأحياناً يبتلي الله سبحانه العباد برغد العيش أو المنصب والجاه أو نوع من السلطة فلا يميل العبد إلى هذه الأمور الزائلة ميلاً عظيماً وينسى الله سبحانه وتعالى وينسى الطاعة والدعوة، والله سبحانه ابتلى بهذه الأمور فرعون وهامان وقارون وكثيراً من الناس فأهلكتهم هذه الأشياء، وابتلى بها داود وسليمان وغيرهما فأدوا حقوق الرب وحقوق العباد واستخدموا هذا الجاه والمنصب والأموال الطائلة لخدمة هذا الدين، ففازوا في الدنيا والآخرة.

والعبد إذا ابتلي في سبيل دعوته إلى الله فلابد من الصبر

---

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٢).
(٢) رواه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٨)، وابن ماجه في الفتن، باب الصبر على البلاء (٤٠٢٣).

والاحتساب، وقدوته في ذلك الرسول ﷺ حيث أوذي أشد الإيذاء في سبيل الدعوة إلى الله ولم يصده ذلك عن الاستمرار فيها، فكان يصبر ويصابر ويحتسب الأجر عند الله، وفي الطائف لما رده سادة هذا البلد ردًّا سيئاً وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة لم يزد أن قال: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوَّتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى مَن تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أُبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرَقَت له الظُلُمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليَّ سخطك، لك العُتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك**»[1].

وهذا بلال بن رباح رضي الله عنه يخرجه أمية بن خلف ويرميه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أَحَدٌ أَحَد.

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمَّار بن ياسر وبأبيه وأمه إذا

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤١٩ ـ ٤٢١).

حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ ويقول: «**صبراً آل ياسر موعدكم الجنة**».

فالدين الإسلامي إنما وصل إلينا بعد جهود هؤلاء الصحابة والسلف الصالح في سبيل الدعوة وتحملهم الأذى والمشاق والصبر على ذلك.

فليع المؤمنون والدُعاة خاصة هذا الدرس العظيم ويوطنوا أنفسهم عليه ويسألوا الله تعالى الثبات والتحمُّل، فلا نجاح ولا فلاح بدون المرور بهذه الابتلاءات مما ظاهره خير أو شر، رزقنا الله تعالى الثبات على دينه والصبر في سبيله.

* * *

الوقفة الحادية عشرة: فتـرة الوحـي

ذكر المحدثون أن مدة فترة الوحي بعد نزول الآيات الأُوَل من سورة العلق إلى أن نزلت أوائل سورة المدثر أنها ثلاث سنين، وبعد ذلك ازداد نزول الوحي وتتابع، قد يسأل سائل ما الحكمة من فتور الوحي؟ ولماذا لم يتتابع نزوله من أول الأمر؟ فيقول العلامة الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وكان ذلك (يعني الفتور) ليذهب ما كان رسول الله ﷺ وجده من الروع، وليحصل له التشوق إلى العود، أي عود الوحي مرة أخرى، وفي كتاب التعبير من البخاري: وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رءوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقًّا. فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك.

وفي هذا فوائد منها:

(أ) استخدام أسلوب التشويق ووسائله في مجال الدعوة والتعليم وفي الوعظ والإرشاد، فكل أسلوب ووسيلة تجلب الانتباه والتشويق فهو مطلوب، ومن ذلك إخبار بعض الحديث المفيد

وترك بعضه حتى يشتاق المستمع إليه ويسأل عنه كما فعل ذلك مع النبي ﷺ؛ بدأ نزول الوحي ثم مر عليه زمن لم ينزل عليه الوحي، فاشتاق إليه ولما اشتد عليه تأخر نزول الوحي ذهب ليلقي بنفسه من فوق الجبل، ولما استأنف نزول الوحي كان أشد مبادرة إلى تنفيذ ما أوحي إليه فبّلغ وأنذر وأدَّى الأمانة ونصح الأمة.. وهذا الأسلوب نجد النبي ﷺ يستخدمه مع أصحابه؛ فعن أبي سعيد بن المعلى قال: مرَّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيت، فقال: ما منعك أن تأتيني؟ فقلت: كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟ ثم قال: «**ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟** فذهب النبي ﷺ ليخرج من المسجد فذكرته فقال: **الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**».

(ب) **التدرُّج في التعليم والدعوة**، وهو ظاهر في كونه نبئ في أول الأمر بـ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، ثم فتر الوحي حتى يسكن فؤاده وتطمئن نفسه ويشتاق إلى نزول الوحي فحينئذٍ أرسل بأوائل سورة المدثر، وقد نقل ابن حجر في هذا الصدد عن الإسماعيلي وذكر بعض الشبهات وردَّ عليها فقال: «قال الإسماعيلي: موَّه بعض الطاعنين على المحدثين فقال: كيف يجوز للنبي أن يرتاب في نبوَّته حتى يرجع إلى ورقة ويشكو لخديجة ما يخشاه، وحتى يوفي بذروة جبل

ليلقي منها نفسه على ما جاء في رواية معمر؟ قال: ولئن جاز أن يرتاب مع معاينة النازل عليه من ربه فكيف ينكر على من ارتاب فيما جاءه به مع عدم المعاينة؟

قال: والجواب أن عادة الله جرت بأن الأمر الجليل إذا قضى بإيصاله إلى الخلق أن يقدمه ترشيح وتأسيس، فكان ما يراه النبي ﷺ من الرؤيا الصادقة ومحبة الخلوة والتعبد من ذلك، فلما فجئه الملك فجئه بغتة أمرٌ خالف العادة والمألوف فنفر طبعه البشري منه وهاله ذلك ولم يتمكن من التأمل في تلك الحال، لأن النبوة لا تزيل طباع البشرية كلها، فلا يتعجب أن يجزع مما لم يألفه وينفر طبعه منه حتى إذا تدرج عليه وألفه استمر عليه، فلذلك رجع إلى أهله التي ألف تأنيسها له فأعلمها بما وقع له فهوّنت عليه خشيته بماعرفته من أخلاقه الكريمة وطريقته الحسنة، فأرادت الاستظهار بمسيرها به إلى ورقة لمعرفتها بصدقه ومعرفته وقراءته الكتب القديمة، فلما سمع كلامه أيقن بالحق واعترف به، ثم كان من مقدمات تأسيس النبوة فترة الوحي ليتدرج فيه ويُمرَّن عليه، فشق عليه فتوره إذ لم يكن خوطب عن الله بعد أنك رسول من الله ومبعوث إلى عباده، فأشفق أن يكون ذلك أمر بدئ به ثم لم يرد استفهامه فحزن لذلك، حتى تدرج على احتمال أعباء النبوة والصبر على ثقل ما يرد عليه فتح الله له من أمره بما فتح. قال: ومثال ما وقع له في أول ما خوطب ولم يتحقق الحال على جليتها مثل رجل سمع آخر يقول: «الحمد لله» فلم يتحقق أنه يقرأ حتى وصلها بما

بعدها من الآيات تحقق أنه يقرأ، وكذا لو سمع قائلاً يقول: «خلت الديار» لم يتحقق أنه ينشد شعراً حتى يقول «مَحَلّهَا وَمَقَامَها». انتهى ملخصاً.

ثم أشار إلى أن الحكمة في ذكره ﷺ ما اتفق له في هذه القصة أن يكون سبباً في انتشار خبره في بطانته ومن يستمع لقوله ويُصغي إليه، وطريقاً في معرفتهم مباينة من سواه في أحواله لينبهوا على محله، قال: وأما إرادته إلقاء نفسه من رءوس الجبال بعدما نُبِّئَ فلضَعف قوَّته عن تحمُّل ما حمَلَهُ من أعباء النبوة، وخوفاً مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعاً، كما يطلب الرجل الراحة من غم يناله في العاجل بما يكون فيه زواله عنه ولو أفضى إلى إهلاك نفسه عاجلاً، حتى إذا تفكَّر فيما فيه صبره على ذلك من العُقْبَى المحمودة صَبَرَ واستقرَّت نفسه»[1].

(جـ) وفي ذلك أيضاً رد على بعض الكفار والمستشرقين من الذين يريدون التشكيك في الوحي أنه من حديث النفس أو أن هذه أفكار جاءت من عبقرية محمد ﷺ، فإنه لو كان الأمر كذلك لما فترت هذه العبقرية واستمرت تنتج، ولم يكن يحتاج في بعض المواقف أن ينتظر الوحي من الله يرشده في ذلك كما حدث ذلك مراراً عندما سئل عن أصحاب الكهف، وذي القرنين، وعن الروح، وغير ذلك بل أجابه فوراً لو كان هذا الأمر من نتاج عبقريته.

---

(١) «فتح الباري» (١٢/ ٤٥١، ٤٥٢).

الوقفة الثانية عشرة: ابتداء دعوة الرسول ﷺ

هذه وقفة أخيرة نقف فيها مع ابتداء دعوته صلوات الله وسلامه عليه بعدما نزل عليه الوحي بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ١ ـ ٧].

هذه الآيات في أولها الأمر بالقيام بالإنذار، وختامها الأمر بالصبر، فكأنها إشارة إلى أن هذه المسيرة محفوة بالابتلاءات وهي تستدعي تطهير الظاهر والباطن ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ كما في هذه الآيات أن الله أكبر من كل شيء فكبّره ولا تخف أحداً إلا الله، ولا يستطيع أحد أن يصيبك بشيء إلا بإذن الله، فاستمر في أداء وظيفتك وهو الإنذار والبلاغ، ولا تقف لأن فلاناً يستهزئ بك أو فلان يسخر بك أو ابتليت في هذا الطريق، واستعن في ذلك بشعورك القوي بأن الله هو أكبر من كل شيء وبنظافة سريرتك ونظافة الظاهر ونبذ المعبودات كلها إلا معبوداً بالحق، فهذه الآيات فيها بيان صريح للمهمة التي من أجلها بعث النبي ﷺ وينبغي أن يستفيد منها المسلمون عموماً والدعاة إلى الله والقائمون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خصوصاً فوائد عدة منها:

(أ) على الدعاة إلى الله عز وجل الإنذار والبلاغ فحسب

بكل إخلاص، وليس عليهم أن ينتظروا حصول النتائج والثمرات، ما على الرسول إلا البلاغ وما علينا إلا البلاغ المبين، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، وقد نبّه الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ إلى ذلك بتنبيه لطيف فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦] أي لا تأسف عليهم أبلغهم رسالة ربك فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

(ب) **ألا يخاف الداعية أحداً إلا الله سبحانه**، وإذا كان لا يخاف أحداً إلا الله سبحانه وتعالى ويؤمن إيماناً قويًّا بأن الله أكبر من كل شيء، فلا يتردد في تبليغ رسالة الله إلى عباد الله جميعاً دون إفراط وتفريط، وينفذ أوامر الله بدون خوف من أحد، ويعلن بإيمانه القوي بربه ويقول بأعلى صوته: إنني من المسلمين، وقد أثنى سبحانه من كان كذلك فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾ [فصلت: ٣١]، وهذا الأمر لا يتأتى إلا بإيمان قوي بأن الله أكبر من كل شيء فيُكَبِّره ويُمَجِّده عملاً بقوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾.

(جـ) **لابدَّ للدعاة أن يكونوا نظيفين نظافة ظاهرة وباطنة**، بعيدين عن جميع أمراض القلوب من الحسد والغش والكذب والخيانة وغيبة الناس، فنظافة الظاهر والباطن كلها ضرورية ليتزود الداعية في مسيرته إلى أن يصل إلى هدفه وغايته في إرضاء الله تعالى.

(د) مسيرة هذه الدعوة المباركة محاطة بالابتلاءات، فلابد للداعي من الصبر، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ ﴾ [الانشقاق: ٦]، فالداعية الذي لا يبتدئ في أمر الدعوة جادًا فيكون في أول أمره نشيطاً ولكن بعد قليل يأخذه الفتور فيقعد عن هذا الطريق، وينتهي الأمر، فهذا الطريق شاق وصعب إلا مَن وفَّقه الله فاستعان بالصبر والصلاة فالله مع الصابرين.

* * *

الخاتمـــة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أمابعد:

فهذه بعض المواقف والدروس التي تُسْتَلْهَم من عرض سيرة الرسول ﷺ في بعثته وما جرى له قُبَيْل بعثته، والمواقف عظيمة ومتعددة والدروس والعِظات كثيرة ولكن المقام لا يسمح بأكثر من هذا، ولعل في الإشارة إلى ما أُشير إليه غنى عن الباقي ودلالة عليه.

فعلينا أن نتخذ رسول الله ﷺ قدوة لنا في جميع أقواله وأفعاله وفي أسلوبه في الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي تجرُّده وفي إخلاصه وابتغائه مرضاة ربه في كل زمان ومكان، كما علينا أن ندرس سيرة الرسول ﷺ الطاهرة دراسة متأنية لنتخذه مثلاً أعلى وقدوة مثلى في جميع شئوننا ونتشبه به في أعمالنا وأقوالنا.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشـابـه بـالكـرام فـلاح

هذا ونسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يرزقنا الاقتداء بالنبي ﷺ والسير على منهاجه واقتفاء أثره وخطواته

صلوات الله وسلامه عليه، إنه سميع قريب، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

كتبه
فالح بن محمد بن فالح الصغيِّر
ص.ب ٤١٩٦١ الرياض ١١٥٣١
البريد الإلكتروني: falehmalsgair@yahoo.com

* * *

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة
المقدمـــــة	٥
وقفة حول رواية الحديث	٩
وقفة على أحوال الناس قبل بعثة النبي ﷺ	١٣
وقفة على أحوال المصطفى ﷺ قبل النبوة	١٩
فقه حديث بدء الوحي:	
* الوقفة الأولى: الرؤيا الصالحة	٣٠
* الوقفة الثانية: خلوة النبي ﷺ في غار حراء	٣٦
* الوقفة الثالثة: فجاءه الحق	٤٣
* الوقفة الرابعة: فجاءه الملك فقال: اقرأ	٤٩
* الوقفة الخامسة: اقرأ باسم ربك الذي خلق	٥١
* الوقفة السادسة: موقف المرأة الصالحة مع زوجها الداعية	٥٦
* الوقفة السابعة: الخلق الحسن في الداعية	٦٥
* الوقفة الثامنة: استشارة أولي النهى في الأمور المعقدة	٧١
* الوقفة التاسعة: الحرص على أعمال الخير	٧٧
* الوقفة العاشرة: الابتلاء من سنن الدعوة	٨١
* الوقفة الحادية عشرة: فتـرة الوحـي	٨٦

* الوقفة الثانية عشرة: ابتداء دعوة الرسول ﷺ ٩٠
الخاتمة ٩٣
الفهرس ٩٥

* * *